الجزء ١٠ المجلد ٦



(دمشق) تشرين الاول سنة ١٩٢٦ م الموافق ربيع الاول وربيع الآخر سنة ١٣٤٥ هـ ٧٠

الغريب الفصيح في العامي

ربما ينكر بعض من درس علم البيان هذا العنوان اذ يرى الغريب موصوفاً بالفصيح ، وقد تعلم ان الفصاحة في المفرد خلوصه من الغرابة فكيف يكون اذاً الغريب فصيحاً ؟؟ فاستمع لما يتلى عليك من معنى الغريب والفصيح ٠

الغريب — هو في عرفهم البعيد عن الاستعمال ، وفسر علماء البيان الغرابة بكون الكلمة غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال ويريدون بالاستعمال استعمال الفصحاء فالغرابة بتفسير علماء البيان هذا أخص من البعيدة عن الاستعمال فاذا كانت الكلمة مستعذبة اللفظ خفيفة على اللسان غير حوشية ولا مستنكرة فكيف تكون غير فصيحة لانها غير مأنوسة ٠ واذا كانت اللغة تقبل بعض الكلمات الأعجمية اذا صقلت وشذبت وجرت مجرى كلمات اللغة العربية فكيف باللفظ العذب الجميل من كلمات المصقول الجاري مجرى غيره من ألفاظها ، وان كان غير مأنوس وانه مهما بعد عن المألوف فلا يصل الى درجة الأعجمي المعرب ٠

على ان مثل هذا البحث لم يهمله أئمة اللغة فقد قال ابن درستويه وحكاه في المزهر « ليس كما ترك الفصحاء استعمال بخطاء فقد يتركون استعمال الفصيح لاستغنائهم بفصيح آخر او لعلةٍ غير ذلك » وقال ايضاً « انما الفصيح ما أفصح عن المعنى واستقام لفظه على القياس لا ما كثر استعماله » وقال السبكي في عروس الافراح : « ينبغي ان تحمل الغرابة بالنسبة الى العرب العرباء لا بالنسبة الى استعمال الناس والا لكان جميع ما في كتب الغريب غير فصيح والقطع بخلافه » ٠

وبعد فان في القرآن والحديث الشريف (وهما ما هما لا يدانيهما في الفصاحة كلام) من الغريب ماجرد الائمة الاعلام وفطاحل اللغة أقلامهم لشرحه كابن قتيبة والزمخشري وكتبهما في غريب القرآن وغريب الحديث معروفة ، فهل كان هذا الغريب غير فصيح ، واسمه كما ترى الغريب ؟ . والظاهر من كلام ثعلب ان مدار الفصاحة في الكلمة على كثرة استعمال العرب لها والمراد بالعرب الموثوق بعربيتهم فلا ينافي الفصاحة قلة استعمال المحدثين لها . نعم ان من الغريب المستكره الحوشي وهو الغامض المغلق الذي لا يألفه الذوق . قال ابن رشيق في العمدة :

« كأنها منسوبة الى الحوش (بضم اوله) قالوا وهي بقايا إبل بارض غاب عليها الجن فعمرتها ونفت عنها الانس لا يطؤها انسي الا خبلوه » .

وفي القاموس الحوشي بالضم الغامض من الكلام والمظلم من الليالي والوحشي من الابل وغيرها وهو منسوب الى الحوش وهو بلاد الجن ، وفي الاساس واصله من الإبل الحوشية وهي التي يزعمون ان فحول نَعَم الجن قد ضربت فيها ويسمونها الحوش قال رؤبة :

(جرت رحانا من بلاد الحوش)

وكيفما كانت هذه الأساطير فانها تدل على وحشية الحوشي .

الفصيح — هو العربي الخالي من اللحن ومنه أفصح اذا تكلم بالعربية وأفصح الأعجمي خلص كلامه من اللحن والفصاحة الخلوص والابانة ومنه افصح الصبح اي استبان ، واللبن الفصيح الخالص من الرغوة ويوم مفصح بلا غيم ولا قر ، والفصيح في عرف اهل البيان خلوصه في المفرد من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس فالاول كمستشزرات والثاني كالجرشّى والثالث كالاجلل في قول امريء القيس (غدائره مستشزرات الى العلى) وقول ابي الطيب (كريم الجرشّى شريف النسب) وقول رؤبة (الحمد لله العلي الاجلل) . والفصاحة في الكلام خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحتها وليس المقام بمتسع للبحث في ذلك .

وقد كانت لغات العرب قبل الاسلام مختلفة باختلاف القبائل ومواطنها

فاختلاف في إبدال الحروف كاولئك واولالك وأنّ وعنّ [1] . واختلاف في الحركات كفتح حرف المضارعة في لغة قريش وكسرها في لغة اسد وقيس . واختلاف في التقديم والتأخير كصاعقة وصاقعة . واختلاف في الادغام نحو مهتدون ومهدّون . واختلاف في الزيادة نحو انظُروا وانظوروا . واختلاف في التضاد اقعد وثب [2] بمعنى اجلس في لغة حِمْيَرْ الى غير ذلك .

وكانت لغة قريش افصح اللغات قال ابو الحسين احمد بن فارس في فقه اللغة « اجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لاشعارهم والعلماء بلغاتهم وايامهم ومحالّهم ان قريشاً أفصح العرب ألسنةً وأصفاهم لغةً وذلك ان الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل قريشاً قطان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون الى مكة للحج ويتحاكمون الى قريش في امورهم وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم

(١) ومنه عنعنة تميم وكشكشة اسد وكسكسة ربيعة فقد كان بنو تميم يقلبون همزة (أن) عيناً وبعضهم يقلبها هاءً . وكان بنو اسد يبدلون الكاف شيناً فيقولون عليش يريدون عليك او كانوا يصلون بالكاف شيناً فيقولون عليكش ولا يزال لهذه اللغة اثر في عامية جبل عامل اذ يدخلون الشين بعد كاف الخطاب اذا وقعت في حيّز النفي وفي بعض الجهات من لبنان يُدخلونها بعدها في المثبت والمنفي . وكان بنو ربيعة كبني اسد الا ان شين اسد سين عند ربيعة .

(٢) وقال ابن فارس : روي ان زيداً بن عبدالله بن دارم وفد على بعض ملوك حِمْيَرْ فألفاه في متصيَّدٍ له على جبل مشرف فسلّم عليه وانتسب له فقال له الملك ثِبْ (اي اجلس) وظن الرجل انه امره بالوثوب فقال لتجدني ايها الملك مطواعاً ثم وثب من الجبل فهلك فقال الملك ما شأنه فخبروه بقصته وغلطه في الكلمة فقال اما انه ليس عندنا عربيةٌ من دخل ظفار حمَّر اي من دخل ظفار وهي المدينة التي كان فيها فليتعلم الحميرية انتهى كلام ابن فارس . والأئمة لم يجعلوا الحميرية لغة غير العربية بل بعضاً منها بدليل ذكرهم الألفاظ الحميرية في مختلف الألفاظ العربية .

بينهم ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميهم (أهل الله) لانهم الصريح من ولد اسماعيل عليه السلام لم تشبهم شائبة ولم تنقلهم عن مناسكهم نافلة فضيلة من الله جل ثناؤه لهم وتشريفاً اذ جعلهم رهط نبيه الاذنين وعترته الصالحين . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب » .

ثم نزل القرآن وجاءت السنة النبوية بلغة قريش وما اليهم من العرب من عليا هواذن كسعد وجشم ابني بكر وثقيف فكانت لغة القرآن هي الحيّة على طول الدهر وكرور العصور ولولاها لكثر تشعب اللغة العربية ولم يكن للفصحى ما لها اليوم من الشأن .

العامي — العامي منسوب الى العامة وهم عامة النـاس و يقابلهم الخاصة والعامة تلك الرجرجة التي عناها امير المؤمنين بقوله النـاس صنفان عالم ومتعلم ورجرجة دون ذلك ينعقون مع كل ناعق . ان اللغات يؤثر فيهـا تطاول المدة واختلاط الامم فيدخلهـا اللحن ثم التحريف فاذا امتدت المدة زاد ذلك فيها وبعد الحادث عن القديم حتى يكون الحادث بعد ذلك لغة قائمة برأسها وهكذا كان تشعب اللغات وكان ذلك على أشده قبل ان تعنى كل امة بلغتها وتدونها ، واللغة التي دوّنت بقيت معروفة بعد موتها .

ان السريانية والعربية والعبرية أخوات لأم واحدة ماتت ولم تعرف لانهـا لم تدوّن ولكن اليونانية القديمة التي دوّنها أهلها والعربية التي عني رجالها وأئمتها بهـا لم تموتا بالنسبة للعامية منهما الا ان اليونانيـة القديمة بعد ان اتخذت اليونانية الحديثة لغة الكتابة والتخاطب أصبحت أثراً يعنى به الخاصة من أهلها وطلابها .

واما العربية فلم يكن لعاميتها هذه المكانة وهذه العناية لمكان اللغـة الفصحى من الكتاب والسنة ولمزيد عناية أبنائها بها فبقيت لغة الكتابة ولم تسلم مع ذلك اسلات اقلام بعض الكتاب من لحنات العامة ولكن الأئمة لم يغفلوا عن ذلك فتجردوا لنقدها حتى يبعد عنها الكتبة و يتنبه اليها اولو الغفلة .

كانت العـامة تبعد عن الفصحى بتطاول المدة يوم أديلت دول العرب وامتد فيهم ملك الأعاجم وكثر اختـلاط العجمة بالعروبة وقضت سياسة ملوك الأقطار العربية من الأعاجم نزعةً ولغةً ان لا يأبهوا للعربية .

كان ذلك الى حين ثم انبعث بصيص النور الى اللغة لان روح الحياة لا بد ان تنبض اذا خف عنها كابوس المرض فأخذت اللغة في الانتعاش في العصر الاخير وظهرت العصبية القومية واهتم الأمم بلغاتها فنهض العرب مع الناهضين لانعاش الفصحى من لغتهم نهضة متثاقلة ولكنها استمرت فنمت وزهر عصرها في مصر ثم في الشام والعراق وكان للجرائد والمجلات اثر صالح في ذلك فكثرت الخاصة بين العامة وأولع العامة بالتقرب من الخاصة فكان من ذلك فاتحة امل جديد . ولو ان للعرب دولة مستقلة لسارت باللغة شوطاً صالحاً .

(الفصيح والعامي من حيث الاستعمال) — لم تخرج العامية مع تحريفها وعدم ضبط قواعدها عن كونها لغة عربية والتحريف كان معروفاً باختلاف لغات العرب كما سبق الكلام عليه وان كان بين الفصيح والعامي أشد وهو في العامي أظهر واكثر وبه ألصق وأليق فالعامية بالنسبة الى الفصحى وهذه بالنسبة الى المتقدمين والمحدثين على ضروب .

(١) الفاظ انفرد بها متقدمو العرب وتركها المحدثون . إما لاستعمالهم مرادفها كعيسور في الناقة الشديدة السريعة استعملوا مكانها علنداة . او لإنها من الحوشي البعيد عن الطبع كقولهم مخرنبق لينباع[1] « قال ابن فارس » وكذلك يعلمون معنى ما نستغربه اليوم من قولنا عيسور في الناقة وعيسجور[2] وامرأة خِنّاني وفرس أشق أمق خِبَقّ[3] ذهب هذا كله بذهاب اهله ولم يبق عندنا الا الرسم الذي تراه .

او تركها المحدثون لانها غير مأنوسة لهم وان لم تكن حوشية ولا ثقيلة كأجي

(١) في القاموس مخرنبق لينباع اي مطرق ليثب وفي نوادر ابي زيد ما نصه : ويقال في مثل مخرنبق لينباق وقد باق يبوق بوقاً اذا اظهر والمخرنبق الساكت على السوءة لينباق بها وقال بعضهم مخرنبق لينباع والمنباع الذي ينباع بالشر الذي في جوفه فيظهره . (٢) العيسجور كالعيسور الشديدة السريعة . (٣) اشق امق كلتاهما بمعنى الطويل وخبق كهجف سريع .

في الحديث الشريف من أجبى فقد أربى (١) ·

(٢) الفاظ استعملها المتقدمون وخواص المحدثين ولم تعرفها العامة كقولهم طخية عمياء ومرة سوداء ·

(٣) الفاظ استعملها العرب وعرفتها العامة وقل استعمال الخاصة لها فلم تشع بينها وهو ما نعني بالبحث فيه الآن ·

(٤) الفاظ للعرب فيها لغتان او اكثر اخذت العامة ببعضها والخاصة ببعض آخر كقَفَزَّ عند العامة وقفز عند الخاصة وما فيهـا دومري (نومري) عند العامة وما فيها ديَّار عند الخاصة ·

(٥) الفاظ استعملها العرب قديمهم وحديثهم وقل استعمال العامة لها فكانت من ذلك مصونة لم تبتذل والفرق بين هـذا الضرب والضرب الثاني ان ذاك لم تعرفه العـامة او لم تكد تعرفه وهذا عرفته ولم تألفه كأمررت الحبل وأحصدته اي فتلته وحبل ممر ومحصد اي مفتول وقد عرفت العامة عقدة مرة اي محكمة العقد ·

(٦) ألفاظ مثل ذلك ولكنها ابتذلت منذ عركتهـا العامة بالسنتها وامتهنتهـا بتحريفها فاجتنبتها الخاصة وأعرضت عنها مثل قول العامة اصطفل اي افعل ما تريد محرفة عن افتصل افتعال من الفصل اي اتخذ الفصل الذي تريده من عملك ·

(٧) ألفاظ مثل ذلك كثيرة الدوران في الكلام لا يستغنى عنها فلم يضرها كثرة الاستعمال لمكان الحاجة اليها كقولك شربت ماء وقرأت كتاباً وهذا اكثر الكلام العربي ·

(٨) ألفاظ حرفتها العامة باستعمالها الى معنى مستكره فتركت الخـاصة استعمالها في معناها الاول لمكان الاستكراه في المعنى الثاني كالصرم بمعنى القطيعة والغائط للمنخفض من الارض حرفت العامة الكلمة الاولى الى معنى السرم والثانية الى معنى الخرء ·

(١) الاجبـاء بيع الزرع قبل بدو صلاحه والارباء الدخول في الربا ومعنى الحديث من باع زرعاً قبل بدو صلاحه فقد دخل في الربا واللازم من ذلك عدم صحة مثل هذا البيع ·

وقد رأيت في مراجعاتي كلمات في اللغة من الضربين الثالث والرابع قل استعمال الخاصة لها حتى كادت تعد غريبة عندهم ولكنها كثيرة الورود في كلام العامة فعنيت بذكرها وشرحها تذكرةً للباحثين وبلغة للمتأدبين ٠

(١) أرم ، مأروم — يقولون للصبي اذا كان مكتنز اللحم مع قصر في قامته هو مأروم أرماً ويداه مأرومتان اذا كانتا مجدولتين ٠ و يقولون أرم فلان اللقمة اذا قطع رأسها بأسنانه ٠ وابرة مأرومة قطع خرمها او رأسها ٠ فالأرم عندهم لمحكم الفتل المكتنز وللقطع ٠ وفي اللغة جارية مأرومة محكمة الفتل والطي عن المخصص وفي القاموس مأرومة حسنة الأرم اي مجدولة الخلق ٠ وفي القاموس ايضاً أرمت السنة القوم قطعتهم وأرم ما على المائدة اكله و بابه ضرب ٠

(٢) أرامل ، أرملة — ويسمون ما يبقى في الارض من اصول نبات الباذنجان ونحوه الى السنة الثانية أرامل ٠ وفي اللغة قال ابن الاعرابي أرامل العرفج اصوله وانشد : (قيد في أرامل العرافج)

وفي القاموس أرمولة العرفج جذموره جمعه أرامل وأراميل ٠

(٣) افز — و يقولون افز الزيت فوق الماء اذا خلص من الماء وعلا فوقه وافزت الزبدة اذا علت المخيض ٠ وفي اللغة افز يأفز اذا وثب ومثله ابز ونفز عن ابي عبيد و بابه ضرب ٠ وفي القاموس الأفز الوثب كأنه مقلوب من الوفز وكله بمعني القفز والوثب ٠

(٤) تبحبح ، بحبحة ، بحبوح ، مبحبح — و يقولون فلان تبحبح بالمكان اذا اتسع عليه وهذا الثوب مبحبح اي واسع وفلان بحبوح اي كريم يوسع على الناس من ماله ٠ وفي اللغة تبحبح بالمكان تمكن من المقام والحلول والبحبحي الواسع في النفقة ٠

(٥) برطم ، مبرطم — و يقولون في غير احترام برطم فلان اذا تضخمت شفتاه من الغضب و يقولون للعبد الضخم الشفه هو مبرطم بصيغة الفاعل ٠ وفي اللغة قال ابو عبيد البرطام الضخم الشفة وقال ابن دريد هو البراطم وانشد :

مبرطم برطمة الغضبان   بشفة ليست على انسان

وفي القاموس مثل ذلك وزاد ٠ البرطمة الانتفاخ غضباً ٠

(٦) بصّاصة ، بصّ ، بصّاص — ويقولون بُص بصيغة الامر اي انظر وفلان بصّاص يبصر جيداً • ويقولون اذا أخطأ بصر الرجل العتب على البصاصات يريدون جمع بصاصة وهي العين • وفي اللغة حكى ابن سيده البصاصة العين صفة غالبة • وفي القاموس لانها تبرق وتلمع • وفيه ايضاً بص الجرو فتح عينيه كبصص • وفي الاساس رماه بالبصاصة وهي العين •

(٧) بعزق ، بعزقه — ويقولون بعزق الحب والماء وبعسقه بالزاي والسين اذا تناثر من بين يديه بان طفح كيله او انخرق ماعونه وراح هذا الشيء بعزقه اذا ذهب متناثراً • وفي اللغة البعثقة خروج الماء من غائل حوض او جابية قاله ابن دريد وتبعثق الماء من الحوض اذا انكسرت منه ناحية فخرج منها عن ابن السكيت وابدال الثاء المثلثة بالسين مألوف معروف عند العامة وابدال السين زاياً غير منكور في كلامهم •

(٨) بغو ، بغوة — ويقولون للثمر اذا قطف قبل ينعه هو بغو والثمرة بغوة • وفي اللغة البغو الثمرة قبل نضاجها • وفي المخصص عن ابي حنيفة واذا عقد الشجر فالثمرة غضة وبَغْوة ومَعْدَة والجمع بغوٌ ومعدٌ •

(٩) التأتأة — ويقولون تأتأ على الباب اذا ضرب ضرباً له صوت خفيف وكذلك تأتأ بالعصا على الارض والمصدر التأتأة وربما يلفظها بعضهم بالقاف فتكون من حكاية الصوت (طق) وفي اللغة كما في القاموس التأتأة حكاية الصوت •

(١٠) تخ ، تخيخ — ويقولون تخ العجين اذا زاد اختماره • وفي اللغة التخ العجين الحامض وقد تخ تخوخة عن القاموس •

(١١) التَلْم ، اتلام ، تلام ، تلّم — ويقولون التلم وزان فجر لما يشقه المحراث في الارض ويجمعونه على اتلام وتلام واشتقوا منها فعلاً فقالوا تلّم الارض اذا شق فيها اتلاماً • وفي اللغة حكى ابن سيده عن ابي حاتم يقال لكل واحد من أخاديد الارض تِلام والجمع تلم (ككتاب وكتب) وعن ابي حنيفة التَلَم (محركة) مشق الكراب في الارض بلغة اهل اليمن والغور والجمع اتلام وفي القاموس عين قول ابي حنيفة او كل اخدود من الارض • اما تسكينها عند العامة فله نظائر ومثله قلْعة وقلَعة فالعامة لا تعرف التحريك وكثير من الأئمة ينكر التسكين •

(١٢) ثخين ، ثخانة — و يقولون فلان ثخين اذا كان ثقيلاً على الطبع وفيه ثخانة اذا كان غير خفيف الروح . وفي اللغة كما في المخصص رجل ثخين اي ثقيل والثخنة الثقل .

(١٣) المجاحشة — و يقولون فلان يجاحش فلاناً والاولاد يتجاحشون اي يزحم بعضهم بعضاً في اللعب . وفي اللغة حكى ابن سيده عن الاصمعي جاحشته وجاحسته اذا زاحمته وفي القاموس جاحشه دافعه وفي الاساس جاحش عن خيط رقبته اذا دافع عن نفسه .

(١٤) جلط ، مجلوط — و يقولون انجلط الجرح وجلط وهو مجلوط اي زال عنه الجلد و يقولون فلان يجلط اي يكذب . وفي اللغة عن القاموس جلط يجلط من باب ضرب كذب . والجلد عن الظبية كشطه .

(١٥) جلع ، جلاعة ، مجلوع ، مجلوء ، جلاء ، جلاآن — و يقولون فلان جلع وزان كتف و به جلاعة كصقاعة وهو مجلوع وربما قلبوا العين همزة فقالوا مجلوء (وله نظائر في كلامهم) وجعلوا المصدر مع القلب جلأ وزان جمل وجلاآن وزان دوران يريدون من ذلك قلة الحياء مع دالةٍ ممقوتة وحذاقة باردة . وفي اللغة الجلاعة قلة الحياء قال ابو عبيد الجَلِعة التي القت عنها الحياء والاسم الجُلاعة بالضم قال ابن دريد هو الجلع ككتف ومثله عن القاموس .

(١٦) جنبذه — و يقولون فلان مهنته الجنبزة بالفتح وجنبز عليه اذا رفع الشيء الى اعلى ما يقدر عليه من المدح وفلان جنبازي اذا كان يغر الناس بمدح السلعة او المبيع اكثر من الحقيقة . وفي اللغة عن المخصص الجُنْبُذة (بالضم) وهو ما ارتفع من كل شيء فاستعمالها بالمعنى العامي مجاز .

(١٧) جاشت — و يقولون جاشت نفسي اذا تحركت للقيء وغثت . وفي اللغة جاشت النفس غثت ودارت للغثيان .

(١٨) جاض ، جوض — و يقولون جاض فلان من الألم اذا كان يتقلب في مرقده ضجراً منه ونفوراً وجاض من الحر اذا كان يريد التخلص ولا يقدر فهو يفر منه ولا يستطيع وفلان يفوح في قيده اذا كان لا ينفك يحاول التخلص منه ولا يقدر .

وفي اللغة جاض يجيض حاد وعدل وفي الاساس جاضوا عن العدو جيضة منكرة نفروا قال القطامي :

وتري لجيضتهن عند رحيلنا وهلاً كأن بهن جنة اولق

(١٩) حزكه ، يزكه — ويقولون حزك فلان (بالتشديد) فلاناً بالشيء الفلاني اذا حمّله إياه على كره منه وألزمه به وشده عليه وربما أبدلوا الحاء ياءً فقالوا بزكه فيه . وفي اللغة عن القاموس حزكه (بالتخفيف) يحزكه عصبه وضغطه وبالحبل شده واحتزك بالثوب احتزم .

(٢٠) حكلة — ويقولون جزى الله فلاناً فقد فك حكلتي اي حل معقدامري وفرج كربتي . وفي اللغة عن القاموس حكل عليّ الامر أشكل كأحكل وزناً ومعنى .

(٢١) تحلحل — ويقولون فلان جالس في مكانه لا يتحلحل وتحلحل من موضعه اذا تحرك قليلاً . وفي اللغة كما في المخصص واما التحلحل فهو التحرك والذهاب وعكس تحلحل تلحلح لفظاً ومعنىً قال ابن قتيبة وهي من الاضداد وأصل تحلحل تحلل أبدلت اللام الثانية حاءً كما قالوا في تكمم (لبس الكمة اي القلنسوة تكمكم وتململ من تملل وكفكف من كف) .

(٢٢) انحمص ، محموص — ويقولون انحمص فلان اذا انقبض طبعه وغضب عاتباً ولما ذا انت محموص . وفي اللغة انحمص فلان انقبض وتضاءل وتحمص انقبض فاستعمال العامة لها من المجاز .

(٢٣) محول — ويقولون شجر محول اذا ترك جناه الى السنة القابلة وارض محولة ترك زرعها الى الحول . وفي اللغة كما في الاساس تحاويل الارض وتحويلاتها ان تزرع سنة وسنة لا . للتقوية .

(٢٤) خبّص تخبيص خبص — ويقولون لمن يخلّط في كلامه على غير انتظام فيه خبّص في كلامه وكلامه تخبيص ويذهبون الى المجاز فيقولون خبصه مخففة اذا ألقى ثقلاً عليه فكأنه خلط بعض اعضائه ببعض لثقله . وفي اللغة الخبص الخلط ومنه الخبيص وهو المعمول من التمر والسمن وخبّص تخبيصاً خلّط .

(٢٥) خَبَط — و يقولون فلان خبط فلاناً بالعصا اذا ضربه . وفي اللغة خبط الشجر يخبطه خبطاً حتَّ الورق عنه ضرباً بالعصي .

(٢٦) الخارم — و يقولون فلان يسلك المخارم الضيقة . ومالك ولهذه المخارم يريدون الطرق والمسالك الضيقة العسرة على السالك . وفي اللغة كما في القاموس المخارم الطرق في الغِلَظ (والغِلَظ وزان عِنَب من الارض غيرالسهلة) .

(٢٧) خلف — و يقولون لكما ينتج من النبات والشجر مرة ثانية في غير أوانه خِلف بكسر فسكون وكذلك ورق الشجر وأغصانه اذا خرجت في غير أوانها . وفي اللغة كما في القاموس في كلامه على الخلف : او ثمر يخرج بعد ثمر او نبات ورق دون ورق وشيء يحمله الكرم بعدما يسود العنب فيقطف العنب وهو غض أخضر .

(٢٨) دراديرـ و يقولون لمنابت أسنان الشيخ اذا سقطت أسنانه وفي الصبي قبل ان ينبت (دراديرـ) وزان عصافير و يقولون اكلت الشيء على دراديري اي منبت اسناني . وفي اللغة الدردر وزان قنفذ مغارز الاسنان في العظم عن ابن سيده او هي مغارز اسنان الصبي او هي قبل نباتها وبعد سقوطها عن القاموس وجمعها الدرادير .

(٢٩) الدعك ، دعكت ، جعكته — و يقولون دعكت الثياب اذا لبستها حتى اذهبت بعض جدتها ودعكت الثوب والجلد لتنتها وربما حرفوها فقلبوا الدال جيماً فقالوا جعكته والمصدر الجعك . وفي اللغة دعكت الثوب دعكاً ألنت خشونته .

(٣٠) دغش ، دغشة ، دغوش — و يقولون دغش فلان على القوم اتاهم في ظلمة آخر الليل ويسمونها دغشة . ودغوش مصدر دغش عندهم . وفي اللغة عن القاموس دغش عليهم كمنع بالمعجمة هجم وفي الظلام دخل كأدغش والدغش محركة الظلمة فكأن العامة خصتها بما كان منها آخر الليل فهو من استعمال المطلق في المقيد .

(٣١) الدفر — و يقولون دفرت الباب دفرة قوية اذا دفعته بعنف . وفي اللغة عن القاموس دفرته عني دفعته ودفر في صدره واذا دنا منك فادفره وفي القاموس الدفر الدفع في الصدر .

(٣٢) دندن يدندن — و يقولون فلان يدندن اذا هينم بكلام لا يفهم · وفي اللغة الدندنة صوت الذباب والزنابير ونحوهما والكلام الذي لا يفهم عن ابي حاتم ·

(٣٣) مدماك — و يقولون لكل صف من الحجارة يبنيه الباني سافاً واحداً مِدْماك بكسر فسكون · وفي اللغة المدماك هو الساف في البناء وقال ابو عبيدة كما حكاه ابن سيده والساف في البناء كل صف من اللبن واهل الحجاز يسمونه المدماك ·

(٣٤) تدهدك ، مدهدك ، دهدكة — و يقولون تدهدك جسمي فهو مدهدك واصابني في جسمي دهدكة وذلك اذا ضني من التعب و كثرة الحركة · وفي اللغة الدهدقة (بالقاف) هي دوران اللحم في القدر كما حكاه صاحب العين فهي اذاً من المجاز وابدال القاف كافاً معروف في كلامهم بل هي لغة فريق منهم ·

(٣٥) دوكة — و يقولون صار بين القوم دوكة بفتح فسكون اي فتنة وشر وعمل دوكة كبيرة اي ضجة واختلاط في فتنة وشر · وفي اللغة كما في نوادر ابي زيد قال ابو الحسن وقع في غيثرة شر اذا وقع في اختلاط و يقال وقع في دوكة وبوكة · وفي القاموس داك القوم وقعوا في اختلاط ومرضوا · ووقعوا في دوكة و يضم شر وخصومة ·

(٣٦) دومري — و يقولون اذا خلت الدار : مافيها دومري بالدال المهملة المضمومة يريدون ليس فيها احد · وفي اللغة تومري بالتاء المثناة الفوقية قال ابن السكيت ما بها تومري وما رأيت تومرياً أحسن منها وكلها بمعنى واحد · وفي القاموس وما بالدار تومري بضم التاء والميم احد ·

(٣٧) رخص — و يقولون للغصن ونحوه اذا كان طرياً ناعماً رخص وزان خصر وولد جسمه رخص · وفي اللغة الرخص الشيء الناعم : ان وصفت به المرأة فرخاصتها نعمة بشرتها ورقتها وكذلك رخاصة اناملها وان وصفت به البنان فرخاصتها هشاشتها وقد رخص رخاصة (كظرف ظرافة) وثوب رخيص ناعم عن صاحب العين ·

« للكلام صلة » النبطية (جبل عامل) : احمد رضا

عضو المجمع العلمي

—((×))*((×))—

تاريخ الطب عند العرب

ايها السادة :

لا يسعني ان افوه ببنت شفة قبل ان احيي بكل اجلال وتعظيم صاحب ذاك الروح الزكي الذي شيد هذا المعهد العلمي وألثم بشفتي معرفة الجميل تلك الايادي البيضاء التي أحيت دارس آثاره وفتحت مغلق أبوابه . وأثني الثناء الطيب على حضرات رئيسه وأعضائه الاساتذة الأجلاء . واشكر حضور هذا المجلس الكرام لما يبدونه من الاهتمام بترويج بضاعة العلم وإحياء آثار السلف المتجلي بتشريفكم ايها السادة لسماع محاضرة هذا العاجز . في ساعة تتوق فيها النفس للرياضة والنزهة مما يستوجب لكم شكري واستمطر عليكم وابل بركات تلك الأرواح العظيمة التي ترفرف الآن في بهو هذا المحفل منتعشة لذكر أسمائها وسرد عظيم أعمالها .

فعليكِ منا سلام الله ايتها الأرواح الطاهرة أرواح سلفنا الصالح أرواح تلك الشموس الساطعة التي أضاءت بكوا كب معارفها ظلمات القرون المتوسطة ، وهدت بما تركته من أعمالها خلال القرون الأخيرة ، وخلدت بعظيم جهادها اسم العرب محفوفاً بالإجلال والتعظيم ، رغم مابلي من لباسهم وما شوهت الايام من ناضر محياهم .

غربت تلك الشموس وبات العالم من بعدها رجلين شأن حال دعاة الإصلاح في كل عصر وقطر . رجل مفتون وآخر محزون ، رجل مادح وآخر قادح . فريق ذهب الى ان العرب هم الذين ابتدعوا الطب وأوجدوه ، وابتكروا جميع فروعه وصنفوه ، وفريق ذهب الى ان العرب أخذوا الطب اليوناني فقلبوه رأساً على عقب فكان لهم مثابة القلم للكاتب او الهيكل العظمي للجسم . وذهب آخرون الى عكس ذلك من ان العرب لم يكونوا سوى واسطة نقل صماء او حرف جر بلا معنى ما بين الأطباء الأقدمين والمتأخرين نقلوا على ظهورهم معارف الأقدمين ولم ترمقها عيونهم ولما تلمسها أناملهم . فكان نصيبهم من الفضل نصيب الناقل لا نصيب الواضع عدا انه لم ينبغ

(١) محاضرة ألقاها الاستاذ الدكتور أسعد الحكيم من اعضاء المجمع العلمي العربي في ردهة المجمع في دمشق يوم الجمعة في ٣٠ آذار سنة ١٩٢٣ م .

فيهم طبيب ولا حكيم · وزاد قوم على ذلك من بشاعة التحامل فقالوا ان العرب قد شوّهوا وجه الطب القديم بما أدخلوه عليه من الخرافات والتدجيل مما عبث به وبالانسانية أعصاراً وأدهاراً ·

فمن الحق يا ترى ؟ وما ذا يكون القول الفصل ما بين هذه الأقوال المتضاربة والأحكام المتناقضة ؟ هذا ما توخيت البحث فيه ، وانا على يقين تام باني لا أفي هذا الموضوع حقه ولكن وشل خير من سراب ووميض برق خير من ظلام وحركة خفيفة خير من جمود مستمر ·

في كل من تلك الأقوال المتضاربة إفراط وتفريط وخطأ وصواب · اما الحقيقة فهي مترددة ما بين طرفي النقيض ·

* * *

لم يخلق العرب الطب ولم يبتدعوه كما انهم لم يكونوا واسطة نقل صماء ما بين الأقدمين والمتأخرين ·

ليس الطب من حيث مبادؤه من صنع أمة من الأمم تمن على العالم بايجاده · بل هو حركة من حركات الانسان الاول سيق اليها بدافع فطري ، هو حس المحافظة على الحياة وتجنب الآلام · فكان يضغط على جراحه ليقطع النزف او يبطل الحس ، ويجتنب الحركة تسكيناً للألم ، ويلتمس الحرارة اثناء البرودة ، ويتطلب البرودة خلال الحمى من الافعال الغريزية التي نشاهدها عند جميع الحيوانات · ثم اخذ هذا الحس الطبيعي يتحول بالتدريج الى إدراك ثم الى معرفة ثم الى علم وفقاً لسنة الارتقاء ·

واول من عُني من الامم بجمع ما اهتدى اليه الانسان بسائق الطبيعة او التصادف من الوسائط التي من شأنها دفع الأمراض ومحافظة الصحة هم الكلدان · وقد حملهم اهتمامهم بهذا الامر الى وضع مرضاهم على معابر الطرق حتى اذا مرّ بهم احد أُصيب بما هم مصابون به ينبئهم بصورة شفائه ، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها على هيا كلهم فكانوا بالنسبة الى الطب كالحتضن بالنسبة الى الطفل كفلوه رضيعاً ، فلم يلبث عندهم حتى اختطفه من بين ايديهم اليونان فأكرموا مثواه وأحسنوا حضانته · فتبناه أبقراط وكفله سقراط وهذبه جالينوس ، فنما صحيح الجسم قوي البنيــة ، تكاملت

بالتشريح أعضاؤه ، وتهذبت بفلسفة الحيــاة أخلاقه ، وصينت بحجاب علم الامراض صحته ، وأصلحت بفن التداوي البسيط مفاسده · فغدا يافعاً يسحر الالباب بفرط جماله ، وعلماً جليلاً تشد رحال الحكماء من عامة الاقطار الى آثينة لاقتباس جواهر أحكامه · غير انه لم يطل العهد حتى أخنى الدهر على اليونان بكلكله ، وقضى على مدنية الرومان بجحفله ، فأظلمت تلك الشموس بعد النور ، وتعكرت تلك المياه بعد الصفاء ، وذلت تلك النفوس الأبيــة ، واستعبدت تلك القلوب الحرة · فأجدب روض الطب بعد الخصب ، وكسدت سوقه بعد الرواج ، فشرد حقيراً يتطلب ملجأ يلتجيء اليه وأباً باراً يعطف عليه · فقذفت به المحن طوراً الى بيزنطية وآخر الى رومية وحيناً الى الاسكندرية واخيراً الى جنديسابور · وكانت حاله في كل من تلك العواصم بين صعود وهبوط ، وإقبال وإدبار ، وخصب وجدب ، الى ان عمت الفوضى وعظم الخلاف ، فاشتغل عنه الناس بالفتن الدينية والاختلافات المذهبية فبات وليس لديه ما يسد به رمقه ، وليس عليــه ما يستر به جسده · تغيرت ملامحــه وتشوهت محاسنه ونفر منه طلابه ، وتوقفت عن النمو اعضــاؤه · يافعاً حرمته مظالم الاضطهاد ان يبلغ رشده وغصناً يانعاً منعته عوامل الاهمال ان يؤتي أكله · وبينا هو يلفظ رمقه الأخير ادركه العرب بترياقهم فانتعش بعد الاختنــاق ، واستأنس بعد اليأس ففتحوا له رحب صدورهم ، وأوردوه عذب المناهل من عقولهم ، ثم كسوه بما عثروا عليه من القلانس الهندية ، والتيجان الفارسية ، وحلوه بما ابتكرته عقولهم من بنات الافكار ، وما ابتدعتــه من الاكتشافات والاختراعات ، فطاب له رغد العيش وصفاء الهواء ، فشب فيما بينهم عربي المنطق فصيح اللسان ، لغتــه لغتهم ، وكسوته لباسهم ، وزينته حليهم ، فليت شعري كيف لا يعترف لهم بالجميل وهو ابن احسانهم وهلا يكون مديناً لهم بالحياة ، وهو ربيب سعيهم واجتهادهم وهلا تقر اوربا باجمعها بفضلهم ، وقد زفوه اليهــا فتياً يتقاطر ماء الحياة من وجهه ، تهذبت بعشرته اخلاقهــا وتناسل منه طبها وجراحتها ·

قال الدكتور غستاف لبون في حضارة العرب (ص ٦١٤) مؤيداً ذلك : ليس كما يقال بواسطة الصليبيين بل بواسطة الاندلس وصقلية وايطالية (ويعني بايطالية

مدرسة سالرنة التي كانت تدرس فيها المصنفات العربية) دخل العلم الى اوربا فأسس في سنة ١١٣٠ في طليطلة تحت ادارة رئيس الاساقفة ريموند مكتب ترجمة نقل الى اللاتينية أشهر مؤلفي العرب وكان نجاح هذه التراجم عظيماً دخل بها الغرب في عالم جديد . وظل السعي متواصلاً في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم ينقل الى اللاتينية مؤلفو العرب كالرازي وابي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم بل نقل ايضاً المؤلفون اليونانيون كجالينوس وأبقراط وغيرهم الذين ترجم العرب مصنفاتهم الى لغتهم . وبفضل تلك التراجم حفظت الى زمننا مصنفات مؤلفين قدماء فقدت كتبهم الاصلية . الى ان قال : فالى العرب خاصة لا الى رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية يعود الفضل بمعرفة التاريخ القديم ، والعالم باجمعه مدين لهم بعرفان الجميل لانقاذهم هذا الكنز الثمين . وقد كتب (م ليبري) « امحوا العرب من التاريخ فتتأخر نهضة الآداب في اوربا قروناً متعددة » وقد أيد زميلنا الدكتور يوسف حريز هذه الحقيقة في كتابه الذي وضعه وأسماه حظ الطب العربي في نشوء الطب الفرنسي . فانه بعدما أظهر ما كانت عليه اوربا في القرن التاسع والعاشر للميلاد من الجهل والهمجية على خلاف الممالك العربية التي كانت ترفل في ذلك العهد بابهى حلل الحضارة والمدنية الرفيعة قال : قدم في القرن العاشر للميلاد جربرت دي اوريلاك الى الاندلس فأخذ العلوم عن العرب ثم عاد فنشرها في اوربا ولاسيما في فرنسا بواسطة مدرسة ريمس وشارتر . وقدم الى ايطاليا في القرن الحادي عشر قسطنطين الافريقي وكان تلقن العلوم العربية في خراسان والشام ومصر والقيروان فنشر فيها العلوم العربية بواسطة مدرسة سالرنة . وقدم الى طليطلة في القرن الثاني عشر جرار دي كريمونا فتعلم العربية فيها بقصد الترجمة فنقل الى اللاتينية ستة وسبعين مؤلفاً لأشهر علماء العرب فكانت الصلة بين العرب واوربا .

* * *

لا ننكر بان بعض الفروع الطبية كالتشريح وعلم الحياة والقبالة لم تنم عند العرب كبقية الفروع الاخرى وذلك لامتناعهم بدافع اعتقادات او عادات في ذاك الحين

من تشريح الموتى والنظر الى النساء . اما بقية الفروع الطبية كالامراض والجراحة والمداواة والكيمياء والمفردات الطبية والصيدلة فقد كان لهم فيها المام خاص ونبوغ زائد . فقد وصفوا كثيراً من الامراض التي كانت مجهولة كالحصبة والجدري . وابتدعوا كثيراً من العمليات الجراحية الخطيرة كقدح العين وتفتيت الحصاة ، وقلبوا فن المداواة القديم رأساً على عقب بما أدخلوه عليه من النظريات والمفردات الطبية الكثيرة والادوية المركبة ، واستعمال الماء البارد . واما الصيدلة فهي بنت ابتكارهم وفيها من الاسماء العربية التي ننطق بها حتى اليوم ما يشهد بعربيتها ابد الدهر .

اما ما ينسبه الفريق المتحامل على العرب من انهم أدخلوا على الطب بعض الخرافات كالطلاسم والرقية وغير ذلك فهذا مما لم يختص به العرب ، ومثل هذه الاعتقادات الوهمية كانت سائدة في كل عصر وقطر عند الأقدمين والمتأخرين حتى في أيامنا هذه ، وعند جميع الشعوب على درجات متفاوتة . على ان مثل هذه الاعمال الوهمية قد لا تخلو من فائدة في معالجة بعض الامراض العقلية ، وهذا ما ساعد على انتشارها والاعتقاد بها . اما ما ينكره الفن الحديث عليها فذلك ان الدجالين ممن لا معرفة لهم ولا ميزة في أخلاقهم انشأوا يستعملونها ويجعلونها أحبولة للارتزاق يستخدمونها في غير ما وضعت له ، فيضرون بها كثيرين ولا ينتفع منها بالعرض الا القليل النادر .

هذه نظرة عامة في حياة الطب الإجمالية في أدواره المختلفة . اما الطب العربي بصورة خاصة فهو لا بد لنا للإحاطة به من شد رحال الفكر الى أوائل القرون الوسطى لنشاهد الطبيب العربي في عصر جاهليته ما بين اليمن والحجاز يحمي شفار الحديد بالنار ليبتر بها عضواً فاسداً (الاغاني ١٣–١٣٧) و يتلو العزائم الوهمية ليشفي باسرارها مرضاً مستعصياً . ثم نرافقه الى دمشق ثم الى بغداد ومنها الى مصر والاندلس حيث نراه استاذاً في الطب يدير المستشفيات العظيمة ، و يجري العمليات الجراحية الكبرى ، يؤلف الكتب و يدون المشاهدات ، يتقاطر اليه طلاب الحكمة من كل حدب وصوب .

* * *

كان شأن الطب عند العرب في عصر جاهليتهم شأنه عند جميع الامم في حال

بداوتهم مقصوراً على تجارب بسيطة نافعة وصلت اليهم عن طريق التوارث ، وعلى اعتقادات وهمية انتقلت اليهم بعامل التواتر والتعارف ، وكان يقوم بمهام هذه المهنة الكهان والعرافون فيعالجون المرضى بالرقية والسحر والعزائم والنذور وغير ذلك . ويستعملون أحياناً بعض العقاقير البسيطة والاشربة المركبة من العسل . وكان لهم إلمام خاص باستعمال الكي بالنار في كثير من الامراض . واشتهر عندهم كثير من المتطببين الذين لم يصل الينا سوى اسمائهم لذهابها مذهب المثل ، كلقمان الحكيم وابن حذيم وغيرهما . اما في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام فقد اشتهر عندهم أطباء حقيقيون أقر لهم أساتذة هذا الفن من الأعاجم المعاصرين لهم بالفضل والحذاقة . منهم الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب في عصره . اصله من ثقيف من اهل الطائف رحل الى ارض فارس وتعلم الطب فيها ، وأجاد في هذه الصناعة وطب في أهل فارس وشهدوا له بالفضل وحصل له بذلك مال عظيم . ثم عاد الى الطائف وكان معاصراً للنبي صلى الله عليه وسلم وكان النبي يوصي باستيصافه .

واشتهر من بعده ولده النضر بن الحارث . وكان فيلسوفاً عالماً وطبيباً ماهراً ومنهم ابن ابي رومية التميمي وكان جراحاً مزاولاً لاعمال اليد (طبقات الاطباء ج ا من ١٠٩ — ١١٦) .

على ان الشريعة الاسلامية الغراء وفي صدرها القرآن جاءت ملأى اذ ذاك بالتعاليم الصحية القويمة الأساسية التي لا شأن لنا بسردها اذ ليس للعرب في استنباطها ناقة ولا جمل .

وما زال الطب عند العرب علماً سماعياً يتناقلونه بالافواه ، الى ان فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية وكان فيها للطب مدرسة تدرس فيها كتب جالينوس الاثنا عشر ومن أساتذتها عبد الملك بن ابجر واهرن القس ولهذا كناش بالسريانية يدعى القوانين نقله ماسرجويه البصري الى العربية في بدء القرن الثامن للميلاد وهو ثلاثون مقالة . وهذا اول كتاب طبي ترجم الى العربية وذلك ايام عمر بن عبدالعزيز (طبقات الاطباء ١ — ١٠٩) .

هنالك في الاسكندرية وقف العرب لأول مرة على أطلال المدنية اليونانية

القديمة فأعظموا أمرها ، وعثروا على البقية الباقية من علوم الأقدمين فتشوقوا لدرسها واول من دعا العلماء الى ترجمة الكتب اليونانيـة الى العربية خالد بن يزيد الأموي حفيد معاوية الاكبر وكان ولعاً بعلم الكيمياء فاستقدم جماعة من الاسكندرية منهم مريانوس الراهب فعلمه صناعة الكيمياء ثم نقلها له اصطفان القديم (الفهرست ٢٤٤) وهذا اول من نقل في الاسلام من لغة الى لغة ، و بالنظر لإدماج جل الأطباء الأقدمين الطب بالكيمياء نقل بهذه المناسبة كثير من معلوماتهم الطبية الى العربية .

☆ ☆ ☆

واول من اشتهر من العرب بالعلوم الطبيعية وضرب فيها بسهم وافر ولا سيما في الكيمياء جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي من رجال القرن الثـاني للهجرة وقد اختلف الناس في امره فقال جماعة من المتأخرين انه اخذ الكيمياء عن جعفر الصادق رضي الله عنه وفي ذلك خطأ كبير لانه لم يعثر في كتب التراجم المعتمدة كالفهرست وطبقات الاطباء وكشف الظنون وغيرها من امهات الكتب الموثوق بها على ما يدل على ان جعفر الصادق كان عالماً بالكيمياء او انه اشتغل بهذه الصناعة بل جل ما ذكره ابن النديم في هذا الصدد ان الشيعة قالت ان جابراً من كبارهم وزعموا انه كان صاحب جعفر الصادق كما زعم غيرهم انه كان من جملة البرامكة ومنقطعاً اليهم ومتحققاً بجعفر بن يحيى البرمكي وان من زعم هـذا قال انه عنى بسيده جعفر هو البرمكي وقالت الشيعة انما عنى جعفر الصادق (الفهرست ص ٣٥١) ومن كلا القولين لا يفهم ان جابراً درس الكيمياء على احد الجعفرين او ان احدهما كان ملماً بهذا الفن وقد يقرب من الصواب ما جاء في كشف الظنون (ص ٣٤٤) ان جابراً اخذ الكيمياء عن خالد بن يزيد الأموي الذي سبق ذكره وقد وضع أسس هذا الفن وقطع فيه شوطاً بعيداً حتى أطلق اسمه عليه . ولقبه الفرنج بواضع الكيمياء وله فيها اكتشافات خطيرة ومؤلفات جليلة يربو عددها على السبعين . فقد اكتشف التقطير والتصعيد وروح الخمر والحوامض القوية وطرق إذابة الذهب وترشيح السوائل وغير ذلك من الاعمال والمركبات الكيماوية الاساسية ، واخترع آلات وأجهزة كيماوية كثيرة .

هذا ولم يكن للعرب في عهد الدولة الأموية من نبوغ في الطب اذ جل من اشتهر اذ ذاك من الأطباء لم يكونوا عرباً . وأشهر هؤلاء في ذلك الحين شمعون وثياذوق اللذان برعا بحفظ الصحة . وابو الحكم وابنه الحكم الدمشقي وعيسى بن الحكم الذين اشتهروا بالطب وابن اثال طبيب معاوية وكان خبيراً بالأدوية السامة القاتلة وكان معاوية يقربه لذلك (طبقات الاطباء ١ : ١١٧) .

على ان النبوغ العربي لم يقتبس من الاسكندرية ولا يشتمل في عهد الدولة الاموية ، اذ الفضل بحمل العلوم الدخيلة للعرب ونقلها الى لغتهم يعود جله للعجم علماء جنديسابور ، والفخر العظيم كل الفخر بجانب اولئك العلماء وتعربهم ونقل علوم الاقدمين الى اللغة العربية وتهيئة الافكار لاقتباسها واستثمارها ونشر لواء الحضارة العربية في جميع الأقطار يرجع للخلفاء العباسيين الكرام .

* * *

وقبل البحث في النهضة العربية لا بد لنا من الاشارة الى الاسباب التي دعت الى انتقال العلوم القديمة من الغرب الى الشرق وجلها ناشئ عن الحروب الدينية والاختلافات المذهبية . فقد تلبدت في سماء الاسكندرية في اوائل القرن الثامن للميلاد ظلمات الأضاليل والاختلافات المذهبية فخبت منهل مدرستها الطبية القديمة فنقلها عمر بن عبد العزيز عام ٧٣١ الى انطاكية ومنها الى حران . واشتعلت نيران الفتن المذهبية في القرن السادس في آثينة فخرج منها الافلاطونيون الذين طردهم يوستينيانوس قيصر الروم فارين من وجه الظلم والاضطهاد ووجهتهم الشرق ملجأ الخائفين ومأمن العلماء المضطهدين في ذاك الحين ، فأكرم كسرى انوشروان العادل وفادتهم فتوطنوا فارس ونقلوا له كتب الفلسفة والطب الى الفارسية (الفهرست ٢٤٢) وتداعت أركان مدرسة الرُّها فنزل علماؤها الى العجم يحملون معهم زبدة علوم اليونان وخيرة كتب الأقدمين . وعلى الجملة انسدل ليل الجهل في أوائل القرن الثامن في اوربا فغربت شمس العلم منها منتقلة الى آسيا فلمعت حيناً في خراسان عند النسطوريين ثم سطعت في بغداد مثوى الحضارة العربية حيث تكاثفت جميع أنوار العلم ومنها انبثقت على العالم أجمع .

واول المدن الشرقية التي فتحت أبوابها لعلوم اليونان الأقدمين ومعارفهم مدينة جنديسابور في خراسان ، وكان فيها في أوائل القرن الثامن مدرسة طب حافلة وبيمارستان لمداواة المرضى أنشأه كسرى انو شروان لا يقبل فيه الاطباء الا بعد الاختبار . وقد اشتهر بحسن الطب فيها أسرات كثيرة منهم آل بختيشوع وآل ماسويه وآل الطيفوري وآل ماسرجويه كان لهم في نقل الطب للعرب أياد بيضاء ومآثر حميدة .

وكان السبب في هجرة هؤلاء الأطباء الى دار السلام ان الخليفة المنصور بعدما بنى مدينة بغداد عام (٧٦٢) اعتراه مرض أفسد معدته وقطع شهوته ، وكان كلما عالجه الأطباء ازداد مرضه فتقدم الى الربيع بان يجمع الأطباء لمشاورتهم فجمعهم فقال له المنصور : هل نعرفون من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً ؟ فقالوا ليس في وقتنا هذا احد يشبه جرجيس رأس اطباء جنديسابور فأنفذ المنصور في الوقت من يحضره . وكان جرجيس هذا مديراً لدار الطب ورئيساً للبيمارستان فخرج من جنديسابور بعد ان أوصى ابنه بختيشوع بالمستشفى وامور واستصحب معه اثنين من تلاميذه ابراهيم وعيسى بن شهلا وقدم الى بغداد فعالج المنصور بتدبير حسن رجع به الى مزاجه الاول فقربه الخليفة وأكرم مثواه وأفاض عليه من وابل كرمه ما أغناه (طبقات الأطباء ١ : ١٢٤) .

ومن ذاك الحين شرع اساتذة الطب في جنديسابور يتقاطرون الواحد تلو الآخر الى دار السلام التي لم تلبث ان ورثت علوم تلك المدينة الزاهرة وجل علمائها فأصبحت عاصمة العلم الوحيدة في العالم . ومن ذاك العهد اخذ يتقاطر الى بغداد حملة العلم والمترجمون من جميع انحاء العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة والعرب متآخين متعاضدين يترجمون من اللغات كافة . من ذاك الدور بدأت تشيد في بغداد المستشفيات العامة والمجامع العلمية ودور الحكمة والصيدليات وقاعات الترجمة ومجالس الأدب والمناظرة مما يدعوه التاريخ النهضة العباسية او القرن الذهبي العربي .

* * *

لا يسعني ان اذكر النهضة العباسية الا وأذكر بجانبها أسماء أولئك الأساتذة الكرام الذين نقلوا للامة العربية جل علوم الأقدمين بتدريسهم وتآليفهم وترجمتهم ·
واول من يجدر ذكره آل بختيشوع واولهم جرجيس الشهير طبيب المنصور الذي تقدم ذكره ثم خلفه ابنه بختيشوع بن جرجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور وولاه رئاسة الأطباء وكان له ولد يدعى جبريل على جانب عظيم من الفضل والذكاء عهد به والده الى جعفر البرمكي فصادف ان اعترى هرون الرشيد احتقان صدري فشفاه منه بالفصد وشفى احدى جواريه من فلج صرعي بحيلة جميلة · فأعجب به هرون الرشيد وولاه رئاسة الأطباء وغمره باحسانه وظل جبريل بعد وفاة الرشيد موضع ثقة الأمين والمأمون ونال من الاكرام ما لا يسعه الوصف وجمع ثروة لا تقل عن تسعين مليون درهم في حياته مما ينطق بعظيم احترام الخلفاء للأطباء وتعظيمهم للعلم في اي اناء ظهر (طبقات الاطباء ج ١ من ١٣٢ — ١٣٧) · وخلف جبريل هذا ابنه بختيشوع بن جبريل وكان طبيب المتوكل وقد بلغ من رفعة الجاه وكثرة المال ما لم يبلغه احد في عصره ·

وبجانب آل بختيشوع يتلألأ في سماء تلك النهضة آل ماسويه وكان ماسويه صيدليًا في مستشفى جنديسابور ، وقدم بغداد للارتزاق فتوفق لشفاء الرشيد من مرض أصابه في عينيه فحظي عنده · اما ولده يوحنا بن ماسويه فقد كان طبيبًا ذكيًا فاضلاً قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة التي وجدها في انقرة وعمورية وسائر بلاد الروم اثناء الفتح وقلده إمارة ديوان الترجمة (طبقات الاطباء ١ : ١٧٥) ·

وممن يجدر بالذكر ايضاً آل ماسرجويه وهو الذي ألف كناشًا في الطب وسابور بن سهل وكان فاضلاً عالماً وله تصانيف مشهورة منها كتاب الاقرباذين الكبير الذي عمل به في البيمارستانات ودكاكين الصيادلة مدة طويلة ·

وتذكر ايضًا تلك النهضة بالجميل آل الطيفوري عبد الله وزكريا واسرائيل وآل ثابت وطبيب هرون الرشيد الهندي صالح بن بهيلة وكثيراً غيرهم ممن كانوا أساتذة في الطب القديم ولهم مؤلفات مشهورة في السريانية نقلت الى العربية ·

على ان الخلفاء العباسيين أدركوا بادئ بدء ان النهضة العلمية في الأمم لا تقوم

بجلب العلماء الأعاجم والكتب الغريبة وانحصار العلم بفريق من الناس دون الآخر بل يقتضي لها ان يتعرب اولئك العلماء وان تترجم تلك الكتب وان ينتشر العلم ما بين طبقات الامة من أدناها الى أعلاها ولذلك كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في استجلاب العلماء ونقل الكتب للعربية ، و يرغبون النقلة بالبذل والإكرام والمحاسنة على اختلاف مللهم وأجناسهم ، و يحثون الناس على تعلمها واقتباسها بجميع الوسائل الخلاّبة و يجيزون على تأليف الكتب بالأموال الطائلة حتى حدا بهم ولعهم بنشر العلم الى بذلهم الاموال للطالعين فضلاً عن المؤلفين .

واول من قام بهذا الأمر الخليفة المنصور فقد دعا جرجيس الى ان يترجم له بعض الكتب الطبية ففعل غير انها فقدت جميعها . ثم جاء الرشيد ومن بعده المأمون فوسعا نطاق هذا العمل ولم يدخرا جهداً في سبيل تقويته . ولم يكتف العباسيون بنقل العلوم من السريانية فحسب بل طمحوا الى أخذها من مصادرها الأصلية فأرسلوا البعثات العلمية الى بلاد الروم وفارس والهند لاقتباس لغاتهم ومعارفهم وقد طلب الخليفة المأمون من قيصر الروم اذ ذاك ان يتحفه بكل الكتب القديمة المحفوظة في خزائنه لترجمتها فأجابه الى ذلك (الفهرست ٢٤٣) وأسس لهذا الغرض قاعات الترجمة وكان ينفق في سبيل نقل الكتب عن سعة حتى أعطى وزن ما يترجم له ذهباً (ابو الفرج ٢٣٦) واقتدى بالمأمون كثير من اهل دولته من اصحاب الوجاهة والثروة في بغداد كآل شاكر الذين تفانوا في طلب العلم وإكرام العلماء وكانوا ينفقون خمسمائة دينار في الشهر للنقل والملازمة . ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ الفي دينار في الشهر (طبقات الأطباء ١ : ١٨٧) وهذا خير دليل على ان العرب لم يجدوا العلوم القديمة ولا سيما الطب لقمة سائغة تناولوها عفواً بلا تعب ، بل جاهدوا في سبيل إحيائها باموالهم وأولادهم وأنفسهم ، مدفوعين بخالص الشوق للعلم المجرد عن كل تأثير خارجي، جهاداً اشترك فيه الشريف والوضيع والتاجر والامير والعبد والسيد من أحقر أبناء السوقة الى أجل سلطان وخليفة مما لم نسمع بمثله في تاريخ أمة من الامم .

* * *

وأشهر اولئك العلماء المترجمين حنين بن اسحق العبادي . ولد في الحيرة عام ١٩٤ للهجرة ثم ذهب الى فارس وتخرج في العربية بالخليل بن احمد ثم انتقل الى بغداد ومنها رحل الى يونان حيث تعلم اللغة اليونانية ثم عاد الى بغداد وقد نضجت معارفه فاجترفه تيار ذاك المعترك العلمي الهائل ، فلم يلبث ان نال قصب السبق في مضماره ، فترجم أبقراط وجالينوس وار يباسيوس وابن أبجر ، وقلد رئاسة الترجمة فكان يتصفح الكتب المترجمة وينقحها وألف كتباً خاصة في الطب منها كتاب في العين (طبقات الاطباء ج ١ : ١٨٥ — ١٨٩) وبرع بجانبه في النقل ابنه اسحق ثم حفيده حبيش .

واشتهر ايضاً بالعلم والحذاقة بالترجمة يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها . نشأ وتأدب في بغداد وكان عالماً بالطب والفلسفة والرياضيات والموسيقى وألف في كل هذه العلوم وأجاد ، وكان له وقوف تام على اليونانية فترجم من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص ، وكان عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة منها رسالة في علة الجذام وكتاب في الأدوية الممتحنة وكتاب الاقرباذين وغيرها من الكتب الطبية الدالة على خبرته وسعة اطلاعه . وقد نقل كتبه هذه الى اللاتينية جرار دي كريمونا في القرن الثاني عشر للميلاد .

ثم برع الى جانبه بالترجمة قسطا بن لوقا البعلبكي وثابت بن قره وابن البطريق وكثير غيرهم من العلماء الاطباء الأفاضل . فنقلوا بعد الجهد الى العربية كتب أبقراط وجالينوس وار يباسيوس وديوسقوريدس وثاوفرسطس واسطاث والاسكندر الافروديسي وابن ابجر وغيرهم .

ولم يكتف العرب بنقل علوم اليونانيين بل دفعهم عامل الشوق للعلم الى نقل علوم الهنديين والفرس وكان للهند مدنية رفيعة ومؤلفات جليلة في علم الطب خاصة بهم . فترجموا مؤلفات سيرك الهندي وسيسرد واستانكر وشاناق وغيرهم . ومن الذين نقلوا علوم الهنديين منكه الهندي طبيب هرون الرشيد وابن دهن الهندي طبيب المستشفى البرمكي .

و بالجملة فان العرب نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفاً في الطب عند سائر الأمم المتمدنة القديمة ، فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها ثم مزجوا ذلك كله واستقطروه ، ثم أضافوا اليه كثيراً من مشاهداتهم وابتكاراتهم ، واستخرجوا ما نسميه قريباً : بالطب العربي ٠

* * *

ظلت بغداد مهد تلك النهضة العربية كعبة العلم ومحج العلماء ، الى ان ولي الخلافة جعفر المتوكل عام ٢٣٣ للهجرة فاضطهد أصحاب العلوم الدخيلة وأساء الى الاطباء ، واستفحل امر الترك وعظمت أذيتهم للعرب (المسعودي ٢ : ٢٦٩) فنفرت قلوب دعاة العلم الحرة وشمخت نفوس طلاب الاصلاح الأبية من ان تألف الضيم وتغضي على القذى ، فتفرقوا رويداً رويداً من بغداد الى انحاء المملكة الاسلامية الى حيث يسود العدل وتورف ظلال الحرية ، يحملون معهم بذور العلم الصحيح فيغرسوها في تلك الصدور الرحبة الخصبة ، ويحرثوها بمحراث تلك العقول الكبيرة ويسقوها من موارد تلك الافكار السامية ، فنبتت عربية تحسدها أبكار اليونان ، قوية الاغصان بديعة الزهور زكية الاثمار ، يتضوع أريج نفحاتها في عامة انحاء المملكة العربية ، تلك المملكة التي سنشاهدها الآن في الصف الاول في المعترك العلمي وفي مقدمتها الرازي وابن سينا وابن عباس وابو القاسم وابن رشد وابناء زهر وابن الجزار والفارابي والصوري وابن التلميذ والنبطي وابن البيطار يحملون مصابيح العلم الصحيح ، يمزقون بانوارها ظلمات الجهل والأضاليل متجهين بها من خراسان والعراق ومصر والشام والقيروان والاندلس ، عن طريق صقلية الى سالرنة ، وعن طريق طليطلة الى مونبيلية ، حيث تكاثفت تلك الانوار ومنها عمت اوربا باجمعها ٠

واول اولئك الرجال العظام الذي يجدر بنا ان ننعته بالمجرب الكبير ابو بكر محمد ابن زكريا المشهور بالرازي ٠ جالينوس العرب ٠ ولد ونشأ في الري في منتصف القرن العاشر للميلاد وأولع لاول امره بالموسيقى ونبغ فيها ثم بالفلسفة والادب ٠ اما صناعة الطب فقد تعلمها وقد اربت سنه على الثلاثين ٠ وذلك ان حبه للسياحة رمى به الى بغداد وكان فيها علي بن ربن الطبري المشهور وكان متميزاً في الطب فدرس عليه

هذه الصناعة وبرع فيها حتى فاق جميع اطباء عصره . وعهد اليه برئاسة البيمارستان العضدي المشهور وكان يطب فيه اربعة وعشرون طبيباً منهم الطبائعيون والجراحون والكحالون والمجبرون كل يداوي حسب اختصاصه . غير انه لم يلبث في بغداد حتى عاد الى بلده الري وتولى تدبير مستشفاها مدة طويلة . وكان الرازي ذكياً فطناً رؤوفاً بالمرضى ، مجتهداً في علاجهم وفي برئهم بكل وجه يقدر عليه ، مواظباً النظر في غوامض صناعة الطب والكشف عن مكنوناتها وحقائقها ، وكان له المنزلة الرفيعة في الري وطار ذكره في البلاد وكثر طلابه من كل صوب وأربت مؤلفاته على المائتين . وكان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ أخر ، فيجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه فان كان عندهم علم والا تعداهم الى غيرهم فان أصابوا والا تكلم الرازي في ذلك (طبقات الاطباء ١ : ٣١٠) . وأصيب الرازي في آخر ايامه بالزرقاء وامتنع عن عملية القدح وكان عرض عليه بعض المتطببين ان يقدح فسأله الرازي كم طبقات العين ؟ فلم يجبه . فقال له لا يقدح عيني من يجهل طبقات العين . وقد توفي الرازي عن عمر يناهز الثمانين سنة عام ٣٢٠ للهجرة .

ومن أشهر مؤلفات الرازي في الطب كتاب الطب الملوكي في العلل وكتاب علاج الامراض كلها بالأغذية ودس الأدوية بالأغذية حيث لا بد منها وما لا يكرهه العليل ، وهو كتاب بديع في بابه . وكتاب المنصوري ألفه للامير المنصور بن اسحق بن اسماعيل بن احمد صاحب خراسان وتحرى فيه الاختصار والايجاز مع جمعه لجمل وجوامع ونكت وعيون من صناعة الطب علمها وعملها ، وهو عشر مقالات درس في الاولى منها الطب الأخلاقي فعدد الصفات الكريمة التي يجب ان يتحلى بها الطبيب ثم حمل حملات عنيفة على الدجالين والمتطببين الأميين لما ينجم عنهم من الأضرار ومن كلامه في ذلك : الاطباء الأميون والمقلدون والذين لا تجربة لهم ومن قلت عنايته وكثرت شهواته قتالون . وقد نقل المنصوري الى اللاتينية جرار دي كريمونا ودرس في باريز زمناً طويلاً ومنه نسخة في دار الكتب العربية في دمشق .

ومن كتب الرازي المشهورة الجامع ويسمى حاصر صناعة الطب وفيه جمع ما وقع

اليه وأدركه من كتاب طب قديم او محدث ٠ وكتاب الجدري والحصبة وهو مفرد في بابه له من الشأن في العالم الطبي درجة رفيعة ٠ فالرازي اول من وصف هذه الامراض واول من فرق الحصبة عن الجدري وكان سلفه يدمجونهما معاً ٠ ووصفه هذين المرضين مستوفٍ من كل الوجوه شامل لأنواعها غير الطبيعية وهو يداويهما بصورة حسنة ومما يسجل له بقلم الفخر انه اول من قال باستعمال الماء البارد في الحصبة المختلطة والاختناق الصدري وهذا من خيرة ما يتوسل به الطب الحديث في معالجة مثل هذه الادواء ٠ وقد لفت الرازي النظر في الانذار في الجدري الى نقاط مهمة لا أرى في بيانها احسن من ان اقرأ على مسامعكم كلام الاستاذ بوشوت في تاريخ الطب والمذاهب الطبية (ص ٣٤٧) وها كم تعريبه عن كتاب الجدري للرازي : « هنا يتجلى الطبيب المجرب باكمل مظاهره اذ لا يوجد في مشاهداته ما يدعو للانتقاد (فقد قال الرازي في الانذار في الجدري) يوجد نوع من البثور البيضاء الكبيرة الحجم تكون في الغالب قتالة وهي البثور المنفشية التي تمتد بصورة يتصل بعضها ببعض وتشغل مساحة كبيرة او التي تؤلف دوائر متسعة ولونهـا لون الدهن ٠ قال بوشوت ولم أرا اصح من هذه البينة فاني ما شاهدت بثور مجدور انبسطت وتلونت بلون الدهن او الجص الا وكان الموت نتيجتها » ٠ وقال بوشوت ايضاً (ص ٣٤٠) الف الرازي كتاباً في امراض الاطفال وهو اول كتاب في هذا الموضوع ظهر في التاريخ وكتاباً في دودة المدينة وفي الانتفاخ العظمي السلامي الذي لم يصفه احد قبله ٠

وللرازي رسالة في الحصا في الكلي والمثانة منهـا نسخة في دار الكتب العربية الظاهرية في دمشق رقم (١٠٣) وهي من خيرة ما كتب في هذا الموضوع ٠ عدد فيها الرازي الاسباب التي تتولد منها هذه العلة ٠ ثم بحث في طرق الوقاية منها وكيفية مداواتها بما لا يختلف عما يأتيه الطب الحديث في هذا المرض ٠

وأجل كتب الرازي وأعظمها : (الحاوي) جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الامراض ومداواتها من جماع الكتب الطبية للمتقدمين ومن اتى بعدهم الى زمانه ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله ونقد تلك الأقوال بصورة تنطق بسعة اطلاعه وفرط ذكائه وعظيم تجاربه ٠ وقد درس فيه الرازي بالتتابع الامراض الموضعية ثم

الامراض العمومية ثم السموم والافرازات السامة ثم الادوية . والطب مدين له بمشاهدات كثيرة في الحميات الخبيثة وامراض الاطفال وامراض الجلد والتقلصات الوجهية الاختلاجية الموجعة . وفيه يوصي كسلفه بالاهتمام بمعاينة البول وينتقد بشدة فرط استعمال المسهلات القوية التي تخرش المعى . وفي كتابه الحاوي في بحث الحميات نظرية خطيرة لم يسبقه اليها احد وهي ان الحمى ليست مرضاً حقيقياً بل هي عرض ينبئ بمقاومة الجسم لدفع المرض الحقيقي .

اما من الوجهة الجراحية فالطب مدين للرازي باول مشاهدة في انتفاخ العظم السلامي وبمشاهدات في الفتق والدوالي الوريدية والأورام الباسورية والحصى والقيلة المائية وانقلاب الرحم والجيوب الوعائية . وينتقد على الرازي في الجراحة استعماله الآلات في تجبير الكسور وارجاع الخلع بدل اليدين . ويرى ان الرازي لم يهتم بادئ بدء بالجراحة التي كان يعانيها اذ ذاك الدجالون وغيرهم غير انه عني بها اخيراً وأجرى بنفسه عمليات كثيرة ومع ذلك فهو لم يشتهر بالجراحة .

وينتقد كتاب الحاوي لكونه مشوشاً مضطرباً والسبب في ذلك ان الأجل لم يفسح للرازي ان يحرر هذا الكتاب فتركه بصورة مسودات اخذها ابن العميد استاذ الصاحب بن عباد من اخت الرازي بعد ان بذل لها دنانير كثيرة وجمع تلاميذه الاطباء الذين كانوا في الري فرتبوا الكتاب على صورته الحالية (طبقات الاطباء ج ١ : ٣١٤) .

وقد كان للحاوي رواج ومكانة عظمى في عالم الطب في آسيا واوربا . فترجم الى اللاتينية عام ١٢٧٩ ميلادية والسبب في ذلك كما قاله لكرلك في كتابه تاريخ الطب العربي (ص٤٦٢) وهو ان الشهرة التي طارت لهذا الكتاب في آسيا والمغرب دعت الملك شارل ملك صقلية الى اتحاف أمته بمثل هذا الكتاب المفيد فأوفد الى تونس بعثة علمية وطلب الحاوي من اميرها في ذلك الوقت وعهد الى فراجيوس اليهودي وكان يحسن اللاتينية والعربية فنقله له ومن ذلك الحين انتشر في جميع مدارس الطب الاوربية . ولم تزل للحاوي منزلة رفيعة في هذا العصر وذلك لتمثيله الطب العربي

ولما فيه من المشاهدات والنظريات ولما ذكر فيه من اسماء الأقدمين الذين لم يعثر على شيء من تراجمهم ولم يعرفوا ويحيوا الا به ·

والرازي اول من استعمل المواد المعدنية المركبة في المداواة كمور يات الزيبق والبورق وآزوتية البوتاس وروح النشادر وملحه وغيرها وهو اول من فرق العصب الحنجري الاعلى من العصب الراجع واول من ذكر ماء الحياة ·

ويتضح مما تقدم ان الرازي لم يكن مقلداً كمن سبقه من الأطباء بل كان اماماً مجتهداً ، انتقد الأقدمين في كثير من آرائهم وأضاف على الطب القديم مشاهدات جمة ومفردات كثيرة وتجارب عديدة (كما هو مبين في كتابه تجارب المارستان) ونظريات مبتكرة حققتها العصور التالية من بعده · وعلى الجملة فقد كان الرازي استاذاً في الطب وبطلاً من أعظم أبطال هذا العلم وعاملاً كبيراً في النهضة الطبية العالمية ·

(للكلام صلة) الدكتور اسعد الحكيم

إعراس الخليفة المأمون

— ٣ —

« مدينة بغداد »

امر ببنائها ابو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ، وأتم بناء قصره الكبير فيها في السنة ١٥٧ للهجرة ، وكانت لعهد ليلة العرس ، فسطاطَ العالم ، واكبر مدينة على وجه الارض ، وقد بلغت من العظمة والأبهة والسعادة ، مالم تبلغه مدينة ، فشيدت بها القصور الفخيمة ، والصروح العظيمة ، والمصانع العديدة ، والجسور والقناطر والمدارس تحاكي القصور ، والمساجد الجليلة ودور الكتب ، والجنات والحدائق والبساتين ، والأسواق الكبيرة والوف الحمامات ، وأنشأ المأمون فيها مرصداً فلكياً ، وكانت دار الخلافة نفسها مرصعة بالمعادن النفيسة التي اجتلبت من أطراف الممالك ، وفيها من الحجارة الكريمة والأمتعة الثمينة ، والرياش الفاخر والآنية البديعة ، وغير ذلك من نوادر التحف وغريب الماعون ، ما لم يجتمع مثله في مدينة من مدن العالم ، وكانت ضواحيها آهلة معمورة حتى الرقة ، وعلى جانبي بغداد كانت المدن الصغيرة كالجعفرية ، والهارونية ، والمهدية ، والمأمونية ، وفيها القصور للخلفاء ولوزرائهم وقوادهم وأكابر الناس ، والصروح والجواسق والجنان والبساتين والمزارع والقرى والمصانع ، مما يعجز القلم عن وصفه ، وبلغ عدد سكانها يومئذٍ في أقل إحصاء مليون نفس ، وورد لبعض المؤرخين انها بلغت المليونين .

كل ذلك في مدة لم تجاوز خمسين سنة من وضع أساسها ، وهو مما لم يحكه التاريخ عن مدينة سواها على وجه البسيطة ولا عجب في ذلك ، فان أحوال هذه الامة البدوية الفتية ، قد حيرت عقول الفلاسفة والمؤرخين والعلماء ، قال الفيلسوف غوستاف لوبون ما محصله : ان مدنية الامة العربية لم يسبق لها مثال في تاريخ البشر ، وقد لا يكون لها مثيل الى الابد ، اذ ان هؤلاء البدو الذين حين فتحهم ممالك فارس والروم ، حسبوا الخبز المرقق ورقاً عندما قدموه لهم ، وظنوا الكافور الذي وجدوه في خزائن كسرى ملحاً فاستعملوه في عجينهم ، هؤلاء البدو قد بلغت حضارتهم في

مدة قرنين ، ما لم تبلغه أمة من الأمم في قرون متطاولة ، فقد أتقنوا الصناعات ، وبرعوا في أصناف العلوم ، ونقلوها الى لسانهم ، وعلموها الامم الاوربية ، فأوربا مدينة لهم اليوم باكثر علومها ، وتأنقوا في المأكول والمشروب ، والملبوس والمفروش ، وسائر أدوات الزينة وأسباب الترفه والنعيم ، وتركوا في الاندلس وغيرها من آثار حضارتهم ، ما يُديم لهم فخراً لا يبليه تقادم الزمان ، وتبدل الحدثان ·

وقال أرنست رينان سيبويه علماء المشرقيات ما نعربه باللغة العربية : خرجت اللغات السامية من ضيق الدائرة التي ظلت سجينةً بها الى ذلك الحين ، ووصلت الى مقام شمل به تأثيرها أقطار الدنيا ، ولم يشهد البشر فتوحاً ، أوفر اتساعاً وأعظم سرعة من فتوحاتها ·

فاللغة العربية هي بغير مدافع ، اللغة التي امتد فتوحها في أوسع بقعة من الارض ، ولا يوجد بين اللغات سوى لغتين تقاسمانها شرف الانتشار ، وتُعدّ ان لغتين عامتين ، وهما اليونانية واللاتينية ، أُريد انها لسان دعوة دينية ، او فكرة سياسية ، وكلاهما فوق اختلاف الاجناس ولكن امتداد الفتوحات اليونانية واللاتينية ، لا يقارب الفتوحات العربية ، لان المتكلمين باللاتينية كانوا من كامباني (مقاطعة من ايطاليا القديمة) حتى الجزائر البريطانية ، ومن الرين حتى جبال الأطلس (في شمال افريقيا) وكان المتكلمون باليونانية من صقليا (سيسيليا) حتى دجلة ، ومن البحر الاسود حتى الحبشة ·

وأين هذه كلها في جنب مملكة اللغة العربية العظيمة ، وقد شملت اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء ، وآسيا الجنوبية حتى جزيرة جاوا ، وروسيا حتى قازان ·

وقال في موضع آخر من كتابه « التاريخ العام في اللغات السامية » : ان اوربا لم تنج من تأثير اللغة العربية الشامل ، فالاسبانيول والبرتقاليون قد أخذوا الى لغتهم الفاظاً عديدة عربية في سائر الاشياء ، وحوت جميع اللغات الرومانية — اللاتينية — عدداً كبيراً من الالفاظ العربية ، وجلها للتعبير عن الاشياء العلمية والصناعية ، وكانت أُمم اوربا في القرون المتوسطة دون الاسلام (العرب) بمراحل ·

اولئك أقوامي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

واذ جرى بنا الحديث الى الكلام عن لغة المأمون ، وهي لغتكم الشريفة أيها السادة : وكنا نظمنا منذ سنوات قريبة قصيدة في وصفها لحادثة معلومة في يومها ، ودعوناها (البدوية) رأينا ان نضمها في سلك محاضرتنا وان طال عليكم الوصول الى ليلة العرس :

« البدوية »

بالله يا نسمات الرند والبان من نجد جئتن ام من روض غسان
وهل لمستن من ذات الدلال رداً ام حدثتكن من أقصى تلمسان
فان فيكن ريحاً من ملابسها فطيب ليلى بانفاس وأردان
وهل لثمتن من ليلي مباسمها إني عليها غيور ايُّ غيران
اني أغار عليها من صواحبها والحاسدات ومن انس ومن جان
فان ليلى فتاة لا مثيل لها صيغت من الحسن شكلاً ماله ثان
الى البداوة منسوب منابتها وان نمت فهل نخر كعدنان
هيفاء لا قِصَرٌ فيها ولا طولٌ تجرُّ أذيال إدلال وإتقان
غزالة تسحر الالباب نظرتها والمسك نكهتها لا ريح ريحان
تدنو لعاشقها تجفو لناكرها تثيب عدلاً بتنويل وحرمان
تشبّه الحضريات الحسان بها وهل كذا بل جفن جفنُ سكران
وكلُّ ثوب عليها ثوب فاتنة ولم يشن حسنها تبديل ألوان
وثوبها يقبل الازياء ما اختلفت وليس يُخْلِقُه تكرار أزمان
حروفها لمعانٍ لا تطاولها في حسنها بنت يونان ورومان
ألفاظها دررٌ تركيبها سُوَرٌ آياتها غُرَرٌ في كل قرآن
عزيزةُ الفضل لم يجحد محاسنها الاّ جهولٌ باعجاز وتبيان
لها الفصاحة تُعْزَى اينما وجدت شهودُها مثلُ قسٍّ او كسحبان
وفي البلاغة هل خودٌ تضارعها وأصلها صاعدٌ يسمو قحطان
وبعض خدامها عبد الحميد ومن تلاه من اصفهانيٍّ وجرجاني
وغيرهم من ملوك الفضل آخرهم رب النهى اليازجي الكوكب الثاني

وكم لجناتها في ارض لبنان ... من هائم في معانيها و بستاني
والشعر محتدها من ذا ينازعها ... فيه وكم تيمت من ند حسان
بلابل الشعر غنتها بدائعه ... على عجائب أوزان وألحان
وربة الشعر ناجتها مواهبها ... فانحط عن عرشها عرش لكيوان
وقلدت جيدها عقداً ترفع عن ... عقود در وياقوت ومرجان
فكل شعر الى أدنى منازلها ... أعلى مراتبه مستشفع دان
وهل أمية صالت واستقام لها ... ملك وطرف لليلى غير يقظان؟
هل استعان على تشتيت ما جمعت ... الا بالفاظها ذاك الخراساني
وهل سما عرش هارون الرشيد على ... ملك بناه على عدل وعمران
والارض في ظلمة للجهل حالكة ... وملكه مشرق من نور عرفان
الا وأعلام ليلى غير خافية ... في كل مأثرة من غير برهان ؟
وهل خليفته المأمون رد لنا ... علم الأوائل من أقوام يونان
الا بألفاظ ليلى غير ملتمس ... في حسن تعريبها الفاظ أعوان
ودولة الناصر العظمى باندلس ... قامت بمدهش عمران وبنيان
في كل فن بسهم وافر ضربت ... ولفظ ليلى بآذان وأذهان
لم يتخذ بدلاً منها ولا سنداً ... لها سوى بعض تباع وغلمان
وكم وكم دول من بعدها درجت ... قامت بليلاي في سر وإعلان
للشعر للعلم ليلى للفصاحة قد ... جاءت بأبدع مروي لإنسان
وفي السياسة والتدبير كم خفقت ... لحسنها راية من فوق تيجان
وفي الصناعات لم تعثر لها قدم ... وفي الحروب تخطت كل ميدان
مجازها واشتقاق لا مثيل له ... ونحتها معجزات كل بهتان
ما ضرها انها والحسن عابدها ... لها حواسد من أهل وجيران

.... انتهى ما يناسب الغرض منها .

* * *

« فتوح المأمون وغزواته وأخلاقه وعلومه وصفاته »

قامت في سبيل المأمون عقب إعلان خلافته عقبات شتى ، اذ انتشرت الفتن على أثر اختلافه مع أخيه المأمون وحروبهما ، وطمع بالخلافة غير واحد من بني العباس ، وافترق الناس فرقاً ، فرقة مع هذا وفرقة مع ذاك ، وكادت تتضعضع اركان الملك ، فأظهر المأمون من الحزم والشجاعة والحلم وحسن التدبير ، ما كان فيه نسيج وحده ، اذ قمع الفتن ، ومهد الأمن ، و بسط العدل ، وغزا وفتح فتوحاً جليلة .

وكان المأمون أعظم بني العباس سؤدداً ومجداً ، وعزماً وسماحة ، وحلماً وشجاعة ، وعلماً وفضلاً ، كثير العفو ، ومن مآثر كلامه « لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا الي بالجرائم » وكان عارفاً باليونانية والعبرية والهندية والفارسية ، عالماً كبيراً وشاعراً وخطيباً ومحدثاً ، متبحراً في الفلسفة والهيئة ، فصيحاً محباً للعمران والحضارة ، ولم يكن نظيره في كل من تقدمه من الخلفاء في حب العلوم والمعارف ، وكان لشغفه بالآداب والفضل عقد عهد صلح مع (تيوفيلوس) ملك الروم في القسطنطينية على ان يستنسخ له جميع المصنفات اليونانية ، ووجه بعثاً آخر يحمل اليه من جزيرة قبرص كل ما وجد هناك من الذخائر العلمية وكانت الجزيرة قد دخلت في حوزة دولته .

فأمر المترجمين كحنين بن اسحق وثابت بن قره ويعقوب الكندي ويوحنا البطريق وغيرهم بتعريب ما لديهم من الكتب اليونانية والسريانية في الحكمة والطب والموسيقى والعلم الطبيعي والسياسة المدنية والنفس والحيوان والنبات والجبر والهندسة والهيئة ، وكان عنده جماعة كبيرة من المنجمين فجمع علماء عصره وأمرهم ان يضعوا آلات الرصد ليقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها ، كما صنع بطليموس ومن كان قبله ففعلوا ، وأمر ببناء المرصد في الشماسية ببغداد ، ومرصداً آخر على جبل قاسيون في دمشق ، وسموه (الرصد المأموني) .

ومن أعماله الخالدة في كتب العلم والتاريخ قياسه للدرجة من خط نصف النهار ، فانه أمر بني موسى محمداً واخويه احمد والحسن بالوقوف على دور كرة الارض وكان الاقدمون يرون ان كل درجة من درج الفلك يقابلها ستة وستون ميلاً من سطح

الارض ، فلما مسحوا الاراضي المتساوية وحرروها وجدوا ان حصة الدرجة ستة وخمسون ميلاً فقط وهو المعتبر ليومنا هذا بفرق قليل جداً .

ثم انه عكف على جمع الكتب وجعل القيم على خزانة كتبه محمد بن موسى الخوارزمي ، وهو اول من ألف في الجبر والمقابلة بالعربية ، ثم امر بانشاء المدارس للعلوم المتعددة ، وكثرت الكتب في ايامه ايضاً ونفقت سوق العلوم ، وقامت دولة الحكمة في عصره كسائر الفنون والناس على دين ملوكهم .

وكان يجمع في قصره العلماء مرةً في كل اسبوع ، وهو اول مجمع علمي عقده سلطانٌ في قصره ، وكان يوزع جوائز وانعاماً على المؤلفين البارعين في يوم الثلاثاء من كل اسبوع ، ويحضر بذاته المحاكمات في ذلك اليوم حسب الفقه الحنفي .

« وزراؤه وقواده وعماله وشعراؤه وأطباؤه وعلماؤه »

كان في رأس وزرائه ذو الرئاستين الفضل بن سهل السرخسي وكان داهية عاقلاً عالماً بعيد النظر حسن التدبير وفيه يقول مسلم بن الوليد :

أقمتَ خلافة وأزلتَ أخرى جليلٌ ما أقمتَ وما أزلتـا

ومن عماله الحسن بن سهل وهو اخو الفضل وسيأتي ذكره ، ومن قواده ذو اليمينين طاهر بن الحسين الخزاعي الشجاع الأديب ، وهو صاحب الكتاب المشهور في كتب التاريخ والأدب ، كتبه الى ابنه عبد الله عندما ولاّه المأمون مصراً ، ولما وقف عليه المأمون قال ما أبقى ابو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من امر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية ، الا وقد أحكم وأوصى به ، وامر المأمون فكتب به الى جميع العمال .

اما ابنه عبد الله هذا فكان ايضاً قائداً شجاعاً عاقلاً أديباً وتنسب اليه الابيات المشهورة .

نحن قوم تليننا الحدق النجـ ـل على اننا نلين الحديدا
طوع ايدي الظباء تقتادنا العيـ ـنُ ونقتاد بالطعان الاسودا

وكان شعراء المأمون ابا العتاهية وصريع الغواني وعلي بن الجهم والصولي والخليع ابن ياسر وأضرابهم ، ومن أطبائه حنين بن اسحق العبادي وجرجس بن بختيشوع

ويعقوب الكندي وابو بكر الرازي وجبرائيل وقسطا ابنا لوقا البعلبكي وأمثالهم ، ومن منجميه الفرغاني وابن نوبخت ومحمد بن موسى الخوارزمي وأخواه وماشاالله اليهودي وابن منصور والجوهري واضرابهم ، ومن القُصّاص الاصمعي وابو عبيدة ، واما العلماء والنحاة الذين كانوا يجلسون في حضرته فكثيرون نكتفي بذكر الفراء والكسائي واليزيدي وقطرب والجاحظ والأخفش وأضرابهم ، ومن قضاته يحيى بن اكثم وابو عبد الله الواقدي واحمد بن ابي دؤاد ، ومن الفقهاء الامام الشافعي والامام احمد بن حنبل .

وان ما ذكرناه طرف من صفات المأمون وما كان يشتمل عليه بلاطه من المجد والمفاخر ، ولو قصدنا الى تصوير نفسه العالية الشريفة ، وتفصيل همته الصاعدة المتينة لاحتجنا من الوقت الى شهر ومن اللفظ الى معادن الدرّ .

كان المأمون ربعةً ابيض جميلاً ، طويل اللحية رقيقها قد وخطها الشيب . فان فاخرت الامم بقديمها وهي تفاخر دون شك ، فهذا قديمكم أيها السادة .

شرف ينطح النجوم بروقيـه وعزٌّ يقلقل الاجبالا

« الحسن بن سهل حمو الخليفة »

كان كريمًا عالي الهمة ولاّه المأمون جميع البلاد التي فتحها طاهر من كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن ، ومن تولى مثل هذا الملك الواسع في ذلك العهد وكان حائزاً ثقة المأمون ورضاه فلا عجب اذا كان اغنى غنيّ في تلك الدولة ، وقد كانت الطريقة أقطاعًا كما تقدم البيان .

« بوران بنت الحسن عروس المأمون »

اسمها خديجة وبوران لقبها او هو اسم فارسي واشتهرت به ، ولدت لسنة ١٩٢ هـ وعُقِد عليها للمأمون في السنة الثانية بعد المائتين ، وكانت عرسها في العاشرة بعد المائتين ، ولم يذكر المؤرخون شيئًا عن جمالها وعقلها ، بل ردد كلهم عبارة واحدة ، تلك ان المأمون تزوجها لمكان ابيها منه وهذا ليس بالبرهان المقنع ، فقد كان في آل العباس من هم اعلى قدراً في عيون الناس من الحسن بن سهل وأقرب رحمًا من المأمون ، ولو أزوجها المأمون واحداً من بني العباس المقربين منه لكفى الحسن بذلك

شرفاً ، فلا بد من ان يكون اختيار المأمون بوران لجمالها او لعقلها وعلمها او لكليهما معاً . وقد كان العقد في الثانية بعد المائتين للهجرة كما تقدم وعمرها يومئذ عشر سنوات ولم يتم الزواج الا في العاشرة بعد المائتين ، وكانت بوران قد بلغت الثامنة عشرة وهذا مجال نظر للناقد ، فقد كانت العرب — وحرُّ بلادهم معلوم ولا سيما بغداد — يتزوجون البنت في الثانية عشرة فما فوقها و يرون كل فتوّتها وزهو صباها في الرابعة عشرة ولا سيما الملوك والامراء ، فما السبب في تأخير عرس المأمون ثماني سنين ؟ أكانت غزوات المأمون وكثرة الفتن من الأسباب التي عاقته كل هذه المدة ام لسبب آخر ؟ لقد أغفل المؤرخون الاولون ذكر كثير من امثال هذه الاحداث الهامة وأسبابها ، بيد ان لها شأناً عظيماً في اعين الناقد مستطلع عادات ذلك الزمن واخلاق اهله وسائر احوالهم ومدنيتهم ، و بات الفوز بذلك بعد تطاول القرون وتقلب الشؤون مما لا مطمع في الوصول اليه او الحصول عليه من مظانّه في كتب التاريخ ، فحسبنا ان نشير الى ذلك بهذه الاشارة حتى اذا اتفق لاحد الادباء العثور عليه في تضاعيف القِصَص او في كتاب من كتب الادب نبه عليه خدمة للعلم .

« ليلة العرس »

كان الحسن بن سهل مع اهل بيته في معسكره بفم الصلح وهي بلدة كانت بين الكوفة والبصرة على نهر كبير يسمى الصلح تبعد ثماني مراحل عن بغداد ، فنهض المأمون اليها لثمان ليال من مضت رمضان في السنة العاشرة بعد المئتين يتقدمه العسكر والقواد والندماء والمغنون والشعراء والعلماء والقضاة والفقهاء وكبار العباسيين من اهل بيته ، وسار خلفه الحشم والخدم والاتباع وسائر بطانته على الخيول الرائعة والبراذين والبغال الفُرُه ، وكان يسبقهم الجمالون والمكارون والحمالون والملاحون والفراشون في جمع لا يدرك الطرف آخره .

وكان الحسن بن سهل قد خرج لاستقبال الخليفة بعسكره وحشمه ، فلما وقع بصره على موكب المأمون امر عسكره بالمسير امام عسكره ، وترجل حتى اقبل على قدمي المأمون ويديه يقبلها ، فقابله الخليفة بأنسه و بشاشته ثم امره بمواكبته فسار في بطانته ، ولما وصلوا الى فم الصلح خرجت المدينة باجمعها لملاقاة المأمون وكان يوماً

مشهوداً لم ير مثله الراؤون ، فنزل الخليفة عن جواده تكتنفه العظمة والجلال وتبسم له ثغور الاماني والاقبال ، وذلك الموكب العظيم يسير بين يديه وكانت قد ضربت له الخيام والسرادقات والقباب من منسوج الحرير والديباج الموشّى ، فدخل قبةً فرشت ارضها بالبسط والزرابي الخسروانية وعلى طاقاتها الستور اليمانية وفي حضرته عظماء الدولة واكابرها والشعراء والندماء والمغنون والعازفون ، وقام الحسن بن سهل يخدم بين يديه ، ثم مُدّت أمامه الموائد الفارسية ، وتقدمت الوان الطعام في الاواني الذهبية وانشد المنشدون وتبارى المغنون ، ولما كانت الليلة الثالثة من وصوله زُفّت اليه (بوران) فلما دخل قبتها كان عندها (حمدونة) بنت هارون الرشيد أُخته لأبيه و (زبيدة) امرأة هرون الرشيد ام اخيه الامين و (جدة بوران) ام ابيها ، وكان قد أُوقد عندها شمعة عنبر مرفوعة على شمعدان من الذهب ثقلها مئة منٍّ ، وذلك نحو خمسة وعشرين رطلاً حلبياً ، وفرشت ارض القبة بحصير منسوج بالذهب ، ولما اقتربت بوران من المأمون لتهنئه بقدومه نثرت جدتها عليها الف درّة من أنفس ما يكون من كبار اللؤلؤ كانت في صينية من الذهب ، ولما رأى المأمون تساقط اللآلئ على قدميه قال قاتل الله ابا نواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درّ على ارض من الذهب

ثم امر بجمعها فجمعت فأعطاها بوران وقال سلي ما ترغبين ، فلم تنطق بحرف ، فقالت لها جدّتها (كلّمي سيدكِ فقد أمرك) فقالت : اسأل سيدي الرضاء عن عمه الامير (ابراهيم بن المهدي) — وكان ذنبه عظيماً — فقال قد فعلتُ ، فقالت : واسأل سيدي الاذن لسيدتي ام جعفر في الحج — وهي زبيدة زوج هرون الرشيد — فقال أذنتُ ، ثم ألبستها البدلة اللؤلؤية الأُموية المشهورة ، ولعلها مما غنمه العرب من الروم في دمشق او مما وقع لهم من الفرس عند فتح المدائن ، ثم استولى عليها العباسيون في جملة ما استولوا عليه من خزائن الأُمويين اذ من المعلوم ان الدولة الأُموية لم تصل الى ما بلغته الدولة العباسية لذلك العهد ، من رقة العيش في المأكول والمشروب والملبوس والمفروش والماعون وسائر عوائد الترف وأحوال المجد والنعيم ، فليس بالمعقول ان يتزيا العباسيون بزيهم او ان يلبسوا ملابسهم وبين البيتين من البغضاء ماهو معروف ٠

وبينما كانت ام الحسن بن سهل تنثر اللآلئ على المأمون وبوران ، كان والد بوران ينثر على الهاشميين والقواد وعظماء الدولة وسائر الطبقة الاولى بنادق مسك في كل بندقة رقعة باسم ضيعة او دار او مزرعة او جارية او فرس او غير ذلك ، فيفتح الرجل البندقة ويقرأ ما فيها ، ثم يمضي الى وكيل أرصد لذلك فيدفع اليه الرقعة والوكيل يسلمه ما في الرقعة سواء كان ضيعةً او ملكاً او جارية او غيرها ، ثم خرج الحسن من ذلك النادي وأقبل على الطبقة الثانية ، فبدأ يفرق بدر الدنانير الى عشرة آلاف ، ثم انتقل الى الطبقة الثالثة فنثر عليهم الدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر .

وظل المأمون عند الحسن تسعة عشر يوماً كان يُعدُّ له فيها وللجميع من معه كل يوم من الأطعمة الملوكية والمشروب وسائر اسباب اللهو والسرور ما يقصر عنه الوصف ، فلم يكن في العسكر ومن ضمهم من المكارين والجمالين والملاحين من يحتاج الى شراء شيء لنفسه او لدوابه ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين مليون درهم او خمسة ملايين ليرة فرنسوية ذهباً .

ثم نهض المأمون وسار ومن معه الى مدينته المأمونية وكان بعث فأمر النواتية بتجهيز الحراقات (السفن) لاجازة خواص الناس بدجلة من بغداد الى قصوره في المأمونية (مدينة المأمون) لحضور الولائم ، فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثين الفاً تسير في دجلة ، وقد تأنقوا في تزيينها بالالوان وطلوها بالذهب وفرشوها بالبسط والسجادات وأناروها ليلاً بمختلف الالوان ، فكانت كالسهام تشق قلب الماء وتظهر عن بعد في الظلام كأنها نجوم السماء ولا يسمع منها الا اصوات المغنين والمغنيات والعازفين والعازفات بين عود ومزمار وكاسات تُدار .

وفي فمه نأي يُدير سُلافةً هي السكر الا انه لا يُحرَّمُ
« وفي فمها شبابةٌ تبعث الهوى ونحن سكوت والهوا يتكلم »

وكانت مدينة المأمون قد لبست من الزينة حللاً ما وراءها لمتطلع غاية ، وكان الحطب المُعَدّ للوقيد بدار الطبخ مائةً واربعين بغلاً مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفنيَ الحطب لليلتين فأوقدوا القصب يصبّون عليه الزيت .

اما قصور المأمون فقد كانت تلك الليلة في حسن وأبهة يعجز القلم عن وصفها

وكان الراكب في دجلة يشرف عليها من بعد شاسع ولا سيا قبابها ، فمن مجصص بالجص الابيض الناصع كالفضة البارقة ومن مطليٍّ نصفه السفلي بالاخضر الناضر والنصف العلوي بالذهب النضار وفوقها جامات الذهب تلالامع كالشهب المتقدة ، ثم يبدو للعيون جمال تلك الحدائق الممتدة الى أقاصي مدى البصر تتسرب فيها جداول الماء من برك عظيمة الاتساع مختلفة الاوضاع ينصب فيها الماء كالفضة الذائبة من افواه حيتان او سباع او نسور او ثيران ، من مرمر مختلف الالوان ، بالغ من الصناعة نهاية الاتقان ، بين جنات قد ازدحمت غياضها واشتبكت اشجارها وتغنت أطيارها وتعانقت أغصانها وامتد ظلالها ، يسير فيها الداخل تحت أقبية وأطواق من فسيفساء الاوراق ، في مماش كأنما ارضها خمائل سندسية ، وعلى جانبيها درابزينات لا يدرك الطرف منتهاها ، قد اعترش عليها الياسمين ، وتعلق بها الورد والنسرين ، ونمت حولها الازاهر والرياحين ، وقامت وسطها القصور الباذخة والصروح الشامخة والاروقة المرتفعة والجواسق المتقنة ، ذوات الساحات المترامية ، والصحون الفساح والافنية الرحاب ، والاندية العظيمة طيقانها أبواب وابوابها حيرة الالباب ، قد أرخيت عليها ستور الديباج والاستبرق كأنها اجنحة الطواويس ، وفُرشت ارضها بأنواع الفسيفساء تحاكي ازاهر الجنان ومتعادي الحيوان ، من أُسود ونمور وغزلان برخام متعدد الالوان ، يخالطه خشب الصندل والعود الهندي ، وفي كل بهو بركة او برك تنساب اليها المياه الصافية على ملون المرمر كالجين الذائب ، والسمك على اختلاف الاشكال والالوان تصعد في مائها وتنحط وتعوم كما يعوم فيها البط ، وقد رُقشت حيطان تلك الابهاء بالقاشاني البديع ، يحاكي بألوانه ورسومه ازهار الربيع ، ورُفعت سقوف تلك الاندية والابهاء الرحاب على اعمدة المرمر ذوات الالوان الباهرة ، وقد أُحكم صنعها ونقشها وتكامل حسنها بتذهيبها ورقشها ، وقامت قبابها على قناطر وحنايا واضلاع ، بلغت بها صناعة الهندسة غاية الابداع ، ودارت فيها الطيقان كالقلائد في اعناق الحسان ، وقد قعدت على اساطين وسوارٍ ركزت على قواعد من الصوان ، وتقنعت باقداح كالنرجس من رخام ، وبلغت من الزهو والارتفاع ما لا سبيل معه الى إمتاع النظر بأعاليها الا بانقلاب رأس الناظر الى آخر المستطاع ، وقد طليت

تلك السقوف والقباب بألوان تحار في محاسنها الابصار ، و يأخذ إبداع رسومها بمجامع القلوب ، وألبست من الذهب الوهاج انواراً يرتد عنها الطرف كليلاً .

وكانت لا تقع العيون في تلك الاندية والابهاء والغرف والمقاصير الا على محاسن قد تناهت في الظرف ، وملاحة وإبداع يقصر عنهما كل وصف ، فمن حيطان من الزجاج رُفعت وراء الشرفات تنعكس عنها الانوار الى داخل القباب ، ومن حيطان من جسيم الرخام حاكت بحفرها ورسومها حبائك الغمام ، او اجنحة الطيور او غلائل الحسان او ظهور السمك والحيتان ، او صور الغزلان وغيرها من الحيوان ، بين مجعّد ومفوّف ، ومسيّر ومنمّر ، ومكفوف وملفوف ، الى أشكال والوان يعجز وصفها ، و يضيق عنها التفصيل والتعبير ، والتمثيل والتصوير ، وفي كل قصر قصور ، وفي كل ناد روضةٌ وغدير وغرف ومقاصير ، وسجوف مرسلة وستور متراخية وسرر مرفوعة وارائك مصنوعة وحجال منصوبة ومجالس مفروشة ومقاعد موضوعة وكراسي مصفوفة وطنافس مبسوطة ، وموائد قائمة واباريق مبثوثة وخواب مسنودة ونرجسيات منسوقة ، وأوان مختلفة الاشكال نادرة الحسن والمثال ، من الصيني والزجاج والذهب ونفائس المعدن وغرائب التحف وعجائب الطرف ، ومجامر العنبر ومباخر الند وقماقم ماء الورد الى ما لا يبلغه عد ، ولا يتخيله فكر شاعر .

تلك هي القصور التي قامت بها الافراح المأمونية والولائم العباسية ، ولما وطئت ارضها بوران اعطاها المأمون في مهرها الف حصاة من نفيس الياقوت .

وقد ظلت الولائم قائمة في تلك القصور اياماً متوالية ، وكل الذي وصفناه ان هو الا خيال ضئيل لحقيقة ذلك العرس الجليل ، فانه عرس لم يرَ له التاريخ مثيلاً ولا بدع فالمأمون فرد لم يزل الزمان بمثله بخيلا .

ولعلنا نأتي في محاضرة أخرى على ما كان للدولة الأُموية الثانية في الغرب من الفتوحات الباهرة ، والآثار الخالدة الفاخرة ، والمدنية العظيمة الزاهرة ، مما تنشرح له الصدور وتهتز النفوس ، وتعلو القيم وترتفع الرؤوس ، و يقال عنده لا عطر بعد عروس .

عضو المجمع العلمي العربي
قسطاكي الحمصي

مطبوعات حديثة

الدنيا في اميركا

« تأليف الاستاذ امير بقطر . طبع في المطبعة العصرية بمصر في نحو »
« ٢٠٠ صفحة بالقطع المتوسط »

ألف هذا الكتاب مؤلفه بعد أن أقام في اميركا مدة طويلة فتلقى العلم في اكبر جامعاتها (جامعة كولومبيا في نيويورك) وحاز درجة (M T) من اعلى شهاداتها . وهو لم يكتف بالوقوف على ظواهر المدنية الاميركية بل تبطّن اسرارها . وتقصى آثارها . وبلا أخبارها . فكان موضع ثقة في جميع ما حرّر وكتب .

وكتابه هذا تارة يظهر من خلال سطوره انه مجموعة (مفكرات) علقها خشية النسيان وطوراً يفهم منه انه مجموعة (محاضرات) دوّنها بناءً على رغبة الكثيرين من أصدقائه ولقد طالعته وأحب ان اعيد مطالعته لأزداد وقوفاً على اسباب ونتائج تلك المدنية العبقرية والعمران العجيب الذي قالت فيه إبنةٌ لي بعد ان طالعتِ الكتاب : انها كانت تتخيّل وهي تطالعه كأنها تقرأ في عجائب الف ليلة وليلة .

وقد أبدع المؤلف في وصف ما رآه وشاهده بنفسه كما انه احتاط وتوثّق في ما نقله ورواه عن غيره : فتتبع جزئيات المسائل وضم بعضها الى بعض بلباقة وحسن أسلوب يزيد القارئ نشاطاً وانبعاثاً في المطالعة : فوصف المؤلف (تمثال الحرية) المنتصب في مدخل ميناء نيويورك و (جزيرة أليس) حيث يحبس المهاجرون ليمحّصوا و يبتلوا . و (عجائب الصناعة والمخترعات) و (اللاسلكي) و (فورد) صاحب السيارات المشهورة و (مكاتب المطالعة) و (الصحافة) و (السوربون) في اميركا و (شلالات نياغرا) الخ الخ كل ذلك تقصّى البحث فيه وأجاد إجادة جمعت بين الفكاهة والفائدة . وكل هذا لا تذكر فائدته في جنب وصف المؤلف لمعاهد التربية والتعليم مما استوعب نحو نصف الكتاب . فهو في هذه المباحث يصف طرائق التربية وأساليبها العملية التي هي سرّ ارتقاء تلك البلاد وبلوغها هذا الحد العجيب من الحضارة والعمران . وقد تخلل هذه المباحث فوائد كثيرة عن تربية الاناث وتعليمهن منفردات

ومختلطات بالذكور . وهذا البحث مما يجدر برجال التربية في بلادنا ان يدرسوه ويقلبوا وجوهه بروية وإمعان لان شرقنا على ابواب انقلاب عظيم من هذا القبيل .

وعبارة الكتاب سهلة قريبة التناول وهفواتها الكتابية قليلة لاتعيب الأسلوب ولا تشوه محاسنه . ومما لاحظناه من هذا القبيل قول المؤلف في المثل المشهور (يتعلمون الزيانة في رؤوس اليتامى) فلم نفطن في اول الامر الى ما اراده بقوله (الزيانة) لان المشهور في المثل (يتعلمون الحلاقة او الحجامة في رؤوس اليتامى) لا (الزيانة) ثم انتبهنا الى انه عنى (بالزيانة) المصدر من جعلهم (المزين) اسماً للحلاق . ولعل المصريين يستعملون كلمة (الزيانة) في المثل المذكور .

ومما امتاز به الكتاب رسومه المتقنة الصنع التي تمثل كثيراً من مظاهر مدنية اميركا ومختلف آثارها ومشاهدها الخلابة .

وبالجملة فان الكتاب من خيرة ما اعتادت (المطبعة العصرية) ان تصدره من كتب المطالعة ومن أجل كتب التربية والتعليم فالشكر لمؤلفه ولناشره .

المغربي

الرسائل النادرة

تحت هذا العنوان سيصدر من وقت الى آخر رسائل صغيرة مطبوعة عن أصولها المخطوطات القديمة المدفونة في كنوز مكاتبنا الاسلامية القديمة . والمشروع عظيم مفيد جداً . والذي تصدى له أبناء كتبي قديم اعني السيد امين الخانجي . وقد نشروا الى اليوم رسالتين أدبيتين : الرسالة الاولى (إعلام الكلام) لابن شرف القيرواني والرسالة الثانية (قراضة الذهب) لابن رشيق صاحب العمدة . وكل منها لا تتجاوز صفحاتها الخمسين والستين صفحة . وموضوع الاولى وصف طبقات الشعراء في الجاهلية والاسلام . ونقد بعض اشعارهم على لسان رجل اسمه (ابوالريان) فأسلوب الرسالة أسلوب مقامة كمقامات البديع الهمذاني . اما موضوع الثانية فهو أخذ الشعراء واقتباس بعضهم من بعض وهل يُعاب اولا يُعاب والتمثيل لذلك بابيات من كلام

الشعراء المتقدمين والمتأخرين الى زمن المؤلف ابن رشيق . وقد افتتح ناشرو هذه الرسائل الرسالة الاولى بقولهم (وبعد هذه الباكورة الاولى من سلسلة الرسائل النادرة التي اعتزمنا على إصدارها وإتحاف الإخصاء من اهل الأدب العربي بها سالكين النهج الذي قصده الوالد منذ ستة وعشرين عاماً الخ . فهذه الرسائل تشبه مجلة تصدر من وقت الى آخر تتضمن أنفس أعلاق العلم الاسلامي والأدب العربي وكلما اجتمع من هذه الرسائل طائفة ضمّ بعضها الى بعض بالتجليد على شكل كتاب تزين به المكاتب وتتعطر بموضوعاته المجالس . والقائمون بهذا المشروع العلمي العظيم أهل له وأحق به من سواهم وقد أعدوا له عدته من الهمة والنشاط واختيار أقرب الطرق الموصلة اليه . ذلك أنهم وثقوا علائقهم مع اكبر رجال العلم وأصحاب المكاتب في مصر كالاساتذة احمد تيمور باشا واحمد زكي باشا ونور الدين بك مصطفى واحمد طلعت بك نجل طلعت باشا الشهير هؤلاء الرجال هم أصحاب المكاتب الكبرى الحافلة بأنفس الآثار العلمية الاسلامية وأقدمها . فاذا بقي هؤلاء الشبان الافاضل مثابرين على نبش هذه الكنوز واستخراج دفائنها فيوشك ان يخدموا المكتبة الاسلامية خدمة جلى . ويطوقوها من عقود الآثار بالأنفس الأغلى . ولكن هناك امر لا نرى بداً من مصارحتهم به : ذلك انهم ان كانوا أعدّوا لهذا العمل عدته من جهة كما ذكرنا آنفاً . فانهم قد قصّروا او اخلّوا بالعمل من جهة أخرى : فان أمارات قصد الربح والتجارة بادية على الرسالتين اللتين نشروهما وكان شأنهم فيهما شأن الذين يطبعون الروايات وكتب القصص فتتهافت عليها العامة والاولاد للتسلية وتزجية الوقت . فيكون الورق من جنس الدون والطبع كذلك . فلا يلبث القارئ ان يقرأ الكتاب التجاري حتى يتبادله الآخر وهكذا . فتتمزق الكتاب ويضمحل أثره . ولا كذلك يجب ان يكون شأن هذه الرسائل النادرة التي انما يقتنيها الخاصة لا العامة . ورجال العلم والفضل لا اهل الغباوة والجهل .

وقد رأينا من سخافة ورق هذه الرسائل وقبحه وقلة العناية بالتصحيح والضبط ما نتشاءم بمستقبل هذا المشروع لان العامة سيزهدون في هذه الرسائل لكونها ليست على شرطهم . والخاصة يزهدون فيها لعدم كل الفائدة منها . ولنضرب لذلك مثالين

يستبين منهما عدم العناية بتصحيح الرسائل . (الاول) ان ناشري الرسائل فسروا كلمة (الكهام) (ص ٢١ من رسالة إعلام الكلام) بقولهم (الكهام سيف فلّ شبانه فامتنع من القطع لهامة) كذا ولم نفهم معنى لهذا القول والأفصح والأوجز ان يقال (الكهام السيف الكليل) . والمثال الثاني من رسالة (قراضة الذهب ص ٣٥) قوله :

(حشى الفحول من الكماة بصبغه ما يلبسون من الحديد معصفرا)

لا معنى لكلمة (حشى) وهي محرفة والبيت للمتنبي ولم يطبع ديوان لشاعر كما طبع ديوانه وتعددت نسخه وشروحه فكان يمكن للمصحح ان يراجع القصيدة التي منها هذا البيت فيجده هكذا :

خَنَّثَ الفحول الخ وخنث فعل ماض كساقى ومعناه انه جعل الفحول كالخناثى من حيث انهم يلبسون الحديد فهم رجال أبطال لكن الحديد معصفر بلون الدم فكانوا كالإناث اللواتي يلبسن المورّس والمعصفر من اللباس .

هذا وان امر هذه الرسائل خطير في فائدته ونفعه ولذلك قدمنا هذه النصيحة للأفاضل القائمين بنشرها . ولا نظنهم الا عاملين بإشارتنا كما يقبلون شكرنا لهم وإعجابنا بهمتهم . ل

كتاب التعليم والصحة

« تأليف الدكتور محمد عبدالحميد بك طبع في المطبعة العصرية بمصر في »

« نحو ١٦٠ صفحة بالقطع الصغير »

هذا الكتاب مما أصدرته المطبعة العصرية لصاحبها الفاضل (الياس انطون الياس) ومؤلفه من أشهر أطباء مصر المتطسين (اي الاختصاصيين) في موضوع هذا الكتاب أعني (مسائل التعليم من حيث ارتباطها بصحة التلامذة) وهو اليوم مدير مستشفى الملك بمصر وكبير جراحيه . ومن آثاره المطبوعة في فنه الذي تنطّس فيه (الدروس الصحية) و (التمريض المنزلي) و (طب البيت) و (تربية الطفل) وغير ذلك . وقد تناول في هذا الكتاب الذي نقرّظه جميع المباحث الصحية التي تتعلق بالتلميذ من

حيث يهم أمرها آباءه وأساتذته الذين يراقبونه عن كثب وهو يجتهد في الدرس والتحصيل فلا يسوقه اجتهاده هذا الى الاخلال بصحته فينقطع عن العلم بتاتاً · ومما تناوله البحث في هذا الكتاب (نتائج الامتحانات وسبب رسوب الطلاب فيها) و (التعليم الإلزامي) و (ضرورة تعاون الآباء والمعلمين في التعليم) و (بعض امراض الطفولة وعلاقتها بالتعليم) الخ · فالكتاب كما يرى القارئ يحتاج اليه كل تلميذ وكل ولي تلميذ وكل معلم تلميذ · فالشكر لمؤلفه الفاضل على ما أتحف به قومه ووطنه · له

حول سرير الامبراطور

اسم لكتيب لطيف الحجم يتضمن وصف حياة الامبراطور نابوليون بونابارت من الوجهة الصحية : اي من حيث مزاجه والامراض التي كانت تنتابه وقد ورث بعضها من ابويه وأسرته · وكيف كان تأثير ذلك المزاج او تلك الامراض في أعماله وحروبه بل وانخزاله وفشله · فالكتاب مفيد لكل احد لاسيما للأطباء · وقد أشار (اوغست كونت) الى هذا بقوله (الأموات يدبرون الاحياء) اي ان الأحياء يستفيدون علماً وتجربةً كلما أمعنوا بحثاً في الاسباب التي أدت الى موتهم · والكتاب يبلغ (١٢٨) صفحة وقد ألفه الدكتور (كابانيس) ونقله الى العربية بتصرف الدكتور (نقولا فياض) المشهور بجمعه بين البراعة في الأدب والمهارة في الطب · وقد عنيت بنشره إدارة مجلة (الهلال) وأهدته الى قرائها حسب عادتها في اختيار الكتب المفيدة وإهدائها اليهم · له

الاحلام

مجموعة قصائد اجتماعية وضعها الشاب الأديب : شفيق افندي معلوف وأفرغها في قالب خيالي رشيق وزينها برسوم ملائمة لتلك الأخيلة فجاءت نموذجاً رائعاً من الأدب الغض الذي يقوم على سواعد الشباب الناهض ·

تصفحت هذا السفر اللطيف فألفيت فيه من رقة الديباجة وجزالة اللفظ ومتانة

الأسلوب ما ينم عن بسطة في الأدب · وحذق في الصناعة · ورأيت في أضعاف سطوره مما يؤخذ به قوله في (ص ٧) :

دعوه يزحزح عن قلبه   بقية حبـاته الذائبة

فان للقلب حبة واحدة لا غير · وقوله في (ص ٨) :

رأيت الثريا على خدها   كوشم · فصمدت في الجوزفره

فان الوشم أخضر او أزرق لا يشبه بالثريا ولا تشبه به وقوله في الصفحة نفسها :

وعاهدتها الحب فهي أليفة ـ صدري وكم فرجت عني حسرة

فقد عدى عاهد الى مفعولين وهي لاتتعدى الا الى واحد وقوله في (ص ١٢) :

فقلت لزنجيتي ودعيني   فسوف يصير الوجود هشيم

اذ لا يغتفر مثل هذه الضرورة لمثل هذا الأديب وقوله (ص ١٣) :

تهب العواصف فيها وتهمي الـ ـصواعق همياً كوكف المطر

والهمي بمعنى السيلان لا يكون الا في سائل وليست الصواعق منه وان أريد بمعنى السقوط فتهوي اولى من تهمي لسلامتها من ايهام ما لا يراد وقوله في (ص ٢٠) :

ونحن تضيق بنا الارض رغم ـ التمدن هذا على رحبها

والمعروف ان يقال على رغم · او الرغم من · وقوله في (ص ٢٧) :

ولكن تلك تلاشي القرون ـ وهذا يلاشيه مر الثواني

فان لفظ تلاشي ويلاشي غير عربي وكأنه مولد وقوله في (ص ٣٥) :

لأدفن بين زهور الرياض   على ضفة النهر الزاخر

فقد جمع فيه الزهر على زهور في هذا البيت والذي بعده وهو لا يجمع هذا الجمع وقوله في (ص ٣٩) :

ورحت أسائل عن حلم ليلي ـ النيام ومن ذا مجيبي سؤلا

فلم أتبين عامل النصب في : سؤلا · وقوله في (ص ٤٩) :

لقد كنت قرب البحيرة غفلان اخبط في لجة من شجوني

فاني لم ار غفلان ·

ولو سلم الكتاب مما ذكرناه وأمثاله واختير له من الرسوم ما هو أليق بالأدب